مأدبة الغياب

قصص قصيرة

تأليف

أسمى وزوز

2012

مأدبـة الغيـاب

قصص قصيرة

تأليف : أسمى وزوز

الطبعة الأولى

تموز 2012

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

صدرت عن

دار الجندي للنشر والتوزيع / القدس– فلسطين

00972542263454

info@aljundi.biz

www. aljundi.biz

التصميم الغلاف

شريف سمحان

00972599875664

لا يسمح بإعادة اصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن خطي من المؤلف.

أسمى وزوز:

شاعرة وكاتبة فلسطينية .
خرّيجة كلّية الآداب. قسم اللغة العربية في جامعة الخليل.
حاصلة على بكالوريس في أدب اللغة العربية.

الإهـــــــداء:

إلى من جعلت المستحيل ممكناً لأكون يوماً ذات وجود، أمي.

إلى من وهبتني من وفائها عمراً فكانت هي الأغلى من الرّوح، صديقة عمري الدّكتورة مائسه.

إلى من علمني أن المرء يحيا ليبدع، وألهمني روح القصيد. الصّديق الناقد والكاتب العراقي الدكتور: إحسان التميمي.

إلى أولادي وبناتي حنين ووجد وجيلان الذين نبضت بقلوبهم سطوري وكانوا وحي كلماتي.

إلى من وهبني الأفق وأثرى إبداعي لينشر مدادي حروفه وسطوره ابن عمتي الكاتب والشاعر عادل سالم.

إلى كلّ من رافقني في دروب الحياة ولقنني درساً من دروسها، أصدقائي وصديقاتي.

إلى كلّ من رسم حرفاً من حروف أبجدياتي، معلماتي وأساتذتي الجامعيين: أستاذ عدنان عثمان والدّكتور ياسر عليان والأستاذ محمود عبد المالك وكلّ من أحيا فيّ اللغة والأدب.

إلى كلّ هؤلاء أهدي مجموعتي القصصيّة تلك ونصوصي الأدبيّة علّها تحمل محبتي الكبيرة لهم.

تقديـــــم :

عودة ثانية إلى كمون الذات، ولكنّها ليست كأيّ ذات، إنها ذات المرأة التي تعجّ بالأسرار، وتشيح بنظرها عن البوح، وهي امرأة وليست كأيّ امرأة، فهي الفلسطينيّة التي نافحت من أجل الحبّ والحياة، على الرغم من إفرازات الواقع السياسيّ في وطنها المغتصب، ومن هنا يكون لنصوص الأديبة أسمى وزوز المجموعة في سفر ((مأدبة الغياب)) نكهتها الذاتيّة الخاصة/العامة في الآن نفسه.

فهي نصوص وإن أوحت لأول وهلة بمنحاها الذاتيّ بوصفها تجربة محايثة للأديبة، لكنّها تتسم بسمة موضوعيّة لأنها تحمل في حناياها عذابات المرأة الفلسطينيّة وهواجسها وأحلامها وتجاربها وصمتها وبوحها على نحو عام.

تنشطر مجموعة الأديبة أسمى وزوز ((مأدبة الغياب)) على قسمين متلازمين: هما:

القسم الأول: ويتضمن ثلاث نصوص قصصيّة وهي:

(عناق حزين)، و (الشرفة وحماقة الانتظار)، و (في مفترق خريفيّ) وهي قصص قصيرة انمازت من غيرها من القصص القصيرة النسويّة بسمات عدة منها:

غلبة سمة التجريب القصصيّ عليها فهي قصص شبيهة ببناء الرّواية من جهة الزّمان والمكان والمنظور، لكنّها رواية مختزلة جداً، وتقترب من بناء القصة المعروف بكونها تختزل الحكي في صورة حدث واحد أو حدثين، وبلغة شفافة رقيقة تغلب عليها الرّوح الرّومانسية، وهي تبتعد عن القصة بكونها لا تعتمد على الحدث الانحداري أي البدء بذروة الحدث والانتهاء به. وإنما تعمد إلى بناء الحدث بناءً (تراجيدياً) يغدو إلى الذّروة ثم إلى الحل. وتلك السّمة تشير من قريب أو بعيد على أنّ هناك لتلك الأحداث والمعاناة نفس روائيّ كامن يستطيع كاتب هذه السّطور التنبؤ به عن ثقة. والسّمة المميزة الأخرى لتلك القصص هي: صورة تفاعلية لأحداث متقاربة، لكنّها سرود مأخوذة من زوايا متعددة شخوصها فـ ((جوى وهيثم في عناق حزين،وسما ونديم في الشرفة وحماقة الانتظار، وريتان وعمر في مفترق خريفيّ)) هم في الحقيقة صورة مشتركة لبناء حدث مركزيّة يحمل ثيمة موحدة لقصصها

الثلاثة. وهي تحكي قصة الحب ومعارضات الزّمن المرّ لذلك الحب الصّادق، الذي أدخل في منعرجات أحداث لم تكن بالحسبان. كماهي الحال في سجن هيثم في المعتقلات الإسرائيلية وخروجه من السّجن ولقائه بجوى بعد زواجهما والوصف الرّومانسي الشّفيف لذلك اللقاء العتيد الجديد،وتتكرر القصة ذاتها في ((الشرفة وحماقة الانتظار، وفي مفترق خريفيّ)).

لكن زوايا أخرى لم تسنطع الكاتبة إضاءتها في قصتهاالأولى. وهو نوع من التجريب الذي ينمّ عن رؤيا وخيال خصبيْن تحاول الكاتبة تكريسها في نفس القارئ لتخلق مناخها القصصيّ الخاص بها.

أما القسم الثاني من المجموعة النصوصيّة فهي نصوص نثريّة ذات طابع شعري عال، وحقّ للقارئ أن يسميها شعراً فكلّ الفنون ضرب من الشعر كما يقولً أرسطو.

وقد بثّت فيها الأديبة أسمى وزوز شجونها وأحزانها الذاتيّة وهي تدوّن للحب والفراق وفرحة لقاء الحبيبيْن والانكسارات التي يفرزها الغياب. ولكن السّمة المميزة للقسم الثاني من المجموعة هو حضور سمة (الغياب) ومعجمها الشعريّ الملازم لها وهيمنته على المجموعة. إذ تختزل مدلولات أخرى مثل (الفراق، الصمت،الخواء، العزلة، مسافات الاغتراب، الفراغ).

وهي مدلولات تنتمي على نحو مباشر أو غير مباشر على تلك السّمة التي أشرت إليها. حتى أنّ الأديبة وسمت مجموعتها النصوصيّة الكاملة بـ ((مأدبة الغياب)).

وانماز القسم الثّاني بانزياحات شعريّة واضحة كلّلت المجموعة بمناخ رومانسيّ وعودة ثانية إلى البوح الذاتيّ بلغة حرة وشفيفة، وصادقة، تنمّ عن حزن نبيل وعميق. ولاشك أنّ القارئ العربيّ بحاجة إلى ذلك العود إلى الذات بعد أن غادرها في عالمنا الخرافيّ المجنون .

وفي نهايةٍ المطاف. أتمنى للأديبة الفلسطينيّة: أسمى وزوز التي تعد بالكثير، مزيداً من العطاء والتألّق.

إحسان محمد التميمي
أستاذ النّقد والبلاغة بجامعة بغداد
كلية التربية/ ابن رشد

عناق حزين

لم تكن فجيعتي بك منذ خمسة وعشرين عاماً قد غيّرت في عمقي شيئاً من إحساسي نحوك، لأننا حين نُفجع في مشاعرنا تجاه شخص، لا يعني ذلك أنّه لم يعد في الذّاكرة بعد أن احتلّ كلّ ركن فيها.

هذا ما كان حقّاً عندما التقيت بك ذلك اللّقاء الدّافئ الذي أشجاني بعد أعوام من البعد والحرمان. وكانت ساعاته وميض برق خلاّب بعد أمل بات يائساً من أن يكون هناك لقاءٌ بيننا بعد الخيبة التي فرّقتنا.

حقاً كنت أراك كلّ عام أو عامين لساعة أو ربما أكثر في ظل واقع فرض علينا الاستسلام والإذعان لحماقتك التي أتاهتنا عمراً أضنانا وأرهقنا، وما برئت جراحنا طوال هذه السّنوات التي كان كلّ ما فيها يستوقفنا ويُبكينا ويبعث الحنين في قلبينا، يهاتفنا: أن قفا واحضنا الذّكريات، فهنا كنتم، وهناك مشيتم، وفي كلّ بقعة لكم ذكرى حنين.
وأصبح كلٌّ منّا سائراً في طريق، لا أعرف إن كانت طريقك وعرة

وشائكة كطريقي، أم سالكة ممرّاتها لعبورك فيها، فلم يكن بُعدك عني بالشّيء المحتمل، بل كانت الهزيمة تلاحقني لكي تجرّدني وتعرّيني من الصّبر، ولولا الكتابة ما استطعت تحمّل ألم الحرمان منك، فكنتَ الجلّاد وكانت هي العزاء.

كثيراً ما قلتُها لك: إنّك قدري ولا مهرب من ذلك، ولو كان الزّمن ناطقا لاعترف بكلّ الحماقات التي نرتكبها حين نحب، ويكون دافعها الجنون والوفاء لإنسان استوطن داخلنا وما استطاعت ريح الحزن انتزاعه ولا ضبابيّة الألم إتاهته عن كلّ ركن في الذّاكرة.

هكذا كنت أنت، وهكذا كان جنوني بك، فالعمر بدأ بك وربما ينتهي على صدرك بدمعة الموت.

ربما يكون القدر قد تواطأ معنا في ربيع هذه السّنة التي أخذنا نسلب فيها من الزّمن حقنا في الحياة والحب والدّفء، وقد كان كلّ منّا يحمل في سراديب ذاكرته الكثير من حميم الذّكريات، ومن سنين تعمّقت مع أخاديد الزّمن، وحفرت أنفاقا سرّية فيها، ولا مناص لأيّ منّا إلّا العبور فيها يومياً، وبعدما يحتّم علينا الخروج منها ونصطدم بصخور الواقع تأخذنا الحيرة والضّياع.

عشرون عاماً وأنت تحتلّ عمقي! جاريت الواقع وكنت معتقدة نسيانك لي، ولكن بذلك اللّقاء ذوّبتَ كلّ الظنون التي كانت تجتاح ذاكرتي.

أذكر عندما كنت ألتقي بك لقاءاتي العابرة التي كانت تأتي ربما مصادفةً، أو بتخطيط عابر، وكان كلّ منّا كغريب يطأ أرضا لا يعلم

عنها شيئا، سلامنا سلام الغرباء، وكلانا يرمق الآخر بعيون حزينة، حيارى نجتمع على مأدُبة الواقع، وكلّ منّا بطل لمسرحية هزيلة يمثّل دوراً ليس له، وبعد أن تنتهي أدوارنا على خشبة مسرح اسمه الواقع، تحتلّ ذاكرتنا الآلام على ماض لم يجرؤ حتى الوقوف معنا لحظة، كم كانت هذه اللّقاءات تترك في العمق غصّة وحسرة!

بقينا أعواماً نتغيّب عن ذاتنا، ونتغرّب عن ذاكرتنا، إلى أن كان لقائي بك على رصيف مقهىً يبدو أنّك اعتدت شرب قهوتك فيه منذ وقت ليس بالقصير، فأخذت تسألني:

. ما آخر أخبارك؟

. أي أخبار تريد ؟

. التي تودّين إعلامي بها ؟

كانت طريقتك في الدّخول إلى أعماقي ذكية، وغالباً ما تدخل إلى سراديب ذاكرتي بطريقة لا أستطيع مقاومتها.

أخبرتك ما رغبت إعلامك به: انهزاماتي وانتصاراتي، مع أنّي كنت عازمة على أن تراني بعيون الماضي لا بعيون الحاضر، ورغم ذلك أحسست بفرحتك الغامرة وأنت تقرؤني حينما أخبرتك عن إنجازاتي في الصّحف والمجلات من تقارير ومقالات وأدبيّات وقلت لك بعفوية: هل تقرأ أشعاري التي تنشرها الصحف؟

– أجل أذكر كلّ شيء ولا أنسى حرقتها وحزنها، ولا أنسى لوعتي وأنا أقرؤك فيها.

طال الحوار يومها حتى شعرت أنّك أقرب لي من كل اللّقاءات

الماضية. وسألتك عن روايات كنت تقرؤها، فذكرتَ لي الكثير مما أفاض داخلي لهفة لقراءتها وقلت لي: بإمكانك زيارتي في البيت، والإطّلاع عليها، فهي في البيت القديم في بيت لحم. ربما تأتين في أيّ يوم وتختارين كلّ ما تريدين.

لم يأت في خاطري أنّ هذا اللّقاء سيكون منعطفاً يغيّر طريقنا معاً، ومحطةَ نضع فيها أثقال الماضي، وننفض غباره المتراكم فينا منذ أعوام، وودّعتني على أن نلتقي بعد أسبوع في مكتبتك.

كثيرٌ من الأحاسيس انتابتني، وأسئلة كثيرة اجتاحت ذاكرتي، دوارٌ كدوار البحر يأخذني من خيبات الواقع وثقله إلى محطّات الماضي الجميل الذي عشناه معاً، وذاكرتي الممتلئة بغبار الزّمن الّذي أثقلني وأتاهني بغربته وضبابيّته الّتي غيّرت عناوين كثيرة في حياتي وأشدّها حزناً وضياعاً كان بُعدك عني.

مرّ اليوم الأول وكان ثقيلاً، أسئلةٌ كثيرة تجتاحني، لأول مرة سنلتقي وحدنا بعد سنين من البرد والصّقيع والغربة، ففي كلّ مرة كنت أراك فيها يكون كثيرون من حولنا، وبالطّبع هم فضوليون يجعلونك متحفظاً في كلّ كلمة، لا تتحدث إلّا بما يرغبون فيه، وأنا أكتفي بأن أراك.

رغماً عني كنتُ أتظاهر أمامك بالرّضى، لكن ذاكرتي تدخلني في عتمة الرّفض، وكنتُ في كثير من اللّقاءات أودّ أن أقول لك لا يمكن لحب أن يموت في يوم من الأيّام، ولا يمكن له أن يتحوّل إلى صداقة في لحظة من اللّحظات.

كنت تتهرب، أشعر بك كلّما كانت تلتقي عيناك بعينيّ، تهرب بهما بعيدا لتبدوَ أمامي بمظهر البطل الذي لسان حاله يقول: لا جدوى من ماضٍ رحل وحمل حقائبه من زمن بعيد، ولا أمل لنا في حبّ أثقل الأعوام وأشجاها.

كلّ هذا آلمني وأدخلني في عُمق خيبتي معك، ولكنّني في مرحلة انتظار يوم لقائك شرعت أتحرر ولو قليلاً من ظنون كثيرة تملّكتني بأن تغيّر بمزاجيّتك موعدنا أو تلغيه.

كم قلت لك أحبك دون تلك المزاجيّة الّتي كثيراً ما تقلقني في إلغائك لمواعيد كثيرة، أو تأخرك عن مواعيد بيننا، وفي كلّ الأحوال هي لا تتناسب مع شخصيّتك الجذّابة، ولكنّي اليوم كنت إيجابيّة تجاهها، وحاولت أن لا أشرع نافذتي لأطلّ على ما بعد غد، وأخذت نفساً عميقاً لاستقبالي اللّحظة الّتي تلي ما بعد الانتظار لموعدك في بيتك ومكتبتك التي احتوتك في سنين غربتك وضياعك عني. كنت بحاجة إلى أن أحدّثك عن عذاباتي طوال السّنين التي افترقنا فيها، بحاجة لأن أبكيك وتبكيني، قد آن لك أن تسمع آهاتي التي صاحبتني عمراً عبر غربتك عني.

وانتهى اليوم دون أن يرنّ جرس هاتفي، فحدّثتني نفسي بأنك ما زلت على موعدنا.

وكانت سلوى صديقتنا التي وُلد وجودها معنا يوم تعرّفت عليك في ذلك المقهى الذي تميّز بلذّة فنجان القهوة فيه، وأصبحت علاقتها حميميّة بك، رغم معرفتي بها من عامين فقط، ولكنّها كانت كالغوّاص الماهر الذي احترف سرعة الغوص في الأعماق، كان انتظارها للقائي بك مقلقاً ومشجياً، وذلك لأنها حملت معي ألم

حرماني منك وعذاباتي معك.

أذكر يوم بُحتُ لها بسرّنا وعرّفتها بقصتنا، كان ذلك في يوم ضبابيّ يثير المشاعر ويلهبها، وكنّا نتمشّى معاً في طرقات المدينة، سألتني عن قصة أنت بطلها، فشعرت بمتعة كبيرة وفرحة ينتابها حزن، وأنا أتحدّث لها عنك، فأنت المغامر الذي تحدّيت السّطور لتكون صاحب قصة أخذتْ عمري كلَّه.

يومها كنتَ حاضراً في عمق ذاتي، مستحضرةً ماضيك المحتلّ ذاكرتي- ومن قال أنّك غبت يوما منها- ؟ ولكن هذا اليوم كان الضّباب يأخذني إليك، ويعيدك إليّ. وبعمق سألتني سلوى:

. منذ متى استوطن ذاتك؟
– لا تقولي منذ متى؟ لأنه كان أول من عرفت.
– وكيف كان ذلك ؟
– منذ طفولتي وصباي الّذي بدأ به ومعه.

– وكلّ تلك السّنين الّتي عمرت قلبيكما بالحب، لماذا تركتكما على مفترق الآلام؟
– لست أدري؟ هل هي حماقة الغدر؟ أم واقعه المؤلم بعد خروجه من السّجن، وقد أحسّ بأن كثيراً من العمر فات، ولن يستطيع اللّحاق به، بعدما أعطب الوطن أحلامه وآماله.
لم يكن الوطن يعلم أنّ حبه وعشقه لي مستمدٌ من حبّ هذه الأرض، ولكن ماذا نفعل؟ كثير من الأشواك تنبت في طريقنا دون إرادتنا.
. وكيف كانت البداية ؟

– منذ كنا أطفالاً. كان يسكن في حيّ قريب من حيّنا، وكبرنا، وكبر حبنا.

ففي ذات يوم أعطاني مذكراته الخاصة لأطّلع عليها، وكانت تحوي قصائد نظمها لتبوح بعشقه لي، وكان عمره آنذاك خمسة عشر عاماً، وكان هذا أول مكان التقت قلوبنا فيه عبر درب طويل، وأنا كذاك كنت أميل إليه وأشعر بتميّزه عن غيره في كلّ شيء: بهدوئه ومشيته المنتصبة وعيونه التي تحمل كل ما بداخله، وثقافته وقراءاته، كلّ شيء فيه ينطق بالإحساس.

– والأعوام التي بينكما أين ذهبت يا جوى؟

– أعوام من العشق، وإخلاص لا حدود له. حبّ تعمّق في ذات كلّ منّا، وقد أحبّني بجنون وأحببته بذلك الجنون وافترقنا كذلك بجنون.

– افترقتم؟ بعد كلّ هذه الأعوام الجنونيّة التي بينكما؟

– نعم.

المحطّة التي كانت فيها خيباتي وكلّ انهزاماتي! صحيح تبدّلت المحطّات كلّها، وتغيّرت ملامح الزّمن والوجوه، ولكنّه بقي معي رغم كلّ شيء، كما هو معي الآن، طيفاً وروحاً لا جسداً.

لم تستطع سلوى أن تسمع أكثر من هذا، فقد أجهشت بالبكاء وغاب صوتها المتقطّع بحزن دموعها، فقد أضحت المركب الذي يضمّ قلبينا وينقلنا في ذلك البحر المتلاطم من مرفأ إلى مرفأ.

كانت هي القلب الأول الّذي حمل جراحنا وخيبتنا، ودخل إلى سراديب ذاكرتنا، فلم يكن سهلاً عليك بعد عشرين عاماً أن يدخل أحد

أنفاق ذاكرتك ولكنّها استطاعت. ربما لأنها تتميّز بخفة ظل، وبراعة في الحديث، وتنقلك من مكان إلى مكان وهي تتحدث إليك. وربما لأنها تملك قلباً واسعاً وحنوناً، فهي صديقة في زمن صعُب فيه اختيار الصديق. كم أحبّها! فهي لا تجعل لك خياراً آخر.

سألَتْكَ يوم لقائنا في المقهى:
ما الذي غيّرك يا هيثم بعد خروجك من السّجن عن جوى؟

لم تستطع الإجابة، لأنه أصبح لديك قناعة بعد كلّ تلك السّنوات أن كلّ أعذارك التي قدمتها لي هي ضعفٌ وخيبة وعطبٌ نفسيّ أقنعت نفسك به لترحل بعيداً عن درب سرنا فيه، وعشتَ بعدها سنوات طويلة بعذابات الضمير وعذابات النّسيان. ولكنك عرّفتني بها بعد فوات الأوان!

كم كنتَ محتاجاً بعد كلّ هذه الأعوام إلى من يبحث عنك في ذاتك وفي عمق ذاتي كذلك، ربما لأنّنا منهكون من المسافات التي تُهنا فيها، وكلٌ منّا يحتاج لمن يداوي جراحه. وكانت صديقتنا سلوى حقاً خير مداوٍ لجراحنا.

هذا اليوم أحسست بالضّجر، صباحه كان مملاً، والوقت يمرّ بطيئاً. كنت جالسة على مكتبي المكدّس بالأوراق والكتب والمجلّات، فالعمل الصحفيّ يغرقني، وكانت سلوى تعمل معي في القسم ذاته، كاتبة صحفيّة، وقد أثقلها الانتظار لموعد لقائي بك، وأظهرت لي تخوّفها من مزاجيّتك، وكلّما غابت بعض الوقت تسألني إن كنتَ قد اتصلتَ بي أم لا؟ وبعد غياب ساعة، جاءت مسرعة، وأخبرتني بلهجة

لم أعهدها من قبل قائلة:

جوى. عندي خبر حاولي أن تحتمليه ولا تحزني. هيثم اتصل بي وأخبرني أنه اضطّر إلى إلغاء الموعد الذي بينكما.

– كنت أتوقع ذلك.

أشعرتها بأني غير مكترثة، وببرود كاذب قلت: ربما يكون ذلك أفضل.

تعمّقتني بنظراتها وضحكت وقالت:

كذبة نيسان يا جوى.

كذبة نيسان! استفزتني سلوى بتلك الكذبة،: أذهلتني وتقولين كذبة نيسان؟ وهل نيسان المسكين بربيعه ونسماته يحتاج إلى كذبة؟ كم تقهرني تلك الطقوس!

ضمّتني إليها واعتذرت لي. وهكذا مرّ اليوم بصباحه الضَجر وبكذبة نيسان، آه! حتى الأشهر صارت تكذب.

اليوم الخميس، عادةً تكون صباحاته مثقلةٌ بالعمل والاتصالات وأجندة ملأى بالمواعيد واللّقاءات، ولكنّي حاولت أن أتعايش معه لأحتضن دفء مساءاته التي تشعرني بالحميميّة وأنا بين كتبي ورواياتي وأوراقي وأقلامي.

وجاء المساء، كان لا بدّ من الاتصال بك لتأكيد الموعد والسّاعة التي نلتقي فيها. حاولت أن أكون هادئة حتى لا تلحظ اضطّرابي.

- مرحبا. هل سنلتقي غدا كما اتفقنا؟

- وهل حصل شيء حتى نلغي الموعد؟

– لا.

تفاجأت من ردّك! شعرت بارتياح بدّد مخاوفي وظنوني، وحاولت الاختصار معك، لأنّ ما يهمّني الآن تحديد الوقت.

– الساعة الثامنة صباحا سأنتظرك في البيت.

– حسنا، وما العنوان؟

– شارع المهد، المفترق الثاني، عمارة 1 الطّابق الثّاني.

– أراك بخير.

أخذت أرسم المكان في ذاكرتي في المدينة التي سكنتك سنوات بعد فراقنا، وأسكنتني فيها بعمق ذاكرتك في شقّة عزلتك ووحدتك إلّا من الذّكريات. وقضيت الليل في عزلتي وأنا أحادث نفسي: بعد كلّ تلك السّنين من الغربة التي عوت في أجسادنا سنلتقي!

هربت إلى سراديب ذاكرتي التي احتوتك أعواماً وأعواماً، أدخل سرداباً سرداباً، وأنت في كلّ مكان تستوطنني. وجدتك صبيّا تلاعبني بالكرة تارة وبالثلج تارة، وبالرّكض والمشي فوق الجدران تارة أخرى، وجدتك عاشقاً متيّما أدرَك أعوام العشق واهباً ذوب روحه لحبيبته. ووجدتك مناضلاً عشق الوطن الذي عذّبك جرحه بين سجن ومنفىً وليالٍ في العراء لا تعرف راحة ولا هدوءاً حتى قطّع أوصالك وأعطب أحلامك.

وجدتك مودّعا لي بعد سنين من العشق ومفارقاً لحبّ لم يقدّر له أن يرى النّور. ورأيتك الرّاحل الحامل حقائب الذّكرى على كتفين متعبين متعثراً تحمل ذنب خيانتك لي والّذي طالما أرّقك طويلاً. رأيتك ووجدتك في كلّ تلك السّراديب، لكن لم أجدك بعد الرّحيل الذي غيّبك عني. بحثت عنك ولم أجدك.

آه، عزلتي كبُرت، لا بدّ أن أخرج منها وألجأ إلى فراشي لأستعدّ للقائك في الصّباح. أدخلت نفسي في الفراش بأحاسيس كلما حاولت

تنويمها أيقظتني، واسترحمت النوم أن يغالبها، وأخذت أغمض جفوني إلّا عن طيفك حتى أخذني النوم.

ها هي أشعة الشمس بخيوطها التي تتسلّل عبر نافذتي. كم كانت تستفزّني في صباحات كثيرة، لكنّها اليوم تحمل لي دفئاً وحنيناً.

نهضت من فراشي وفتحت النّافذة. تأملت زرقة السّماء الّتي تتبعثر فيها غيوم صغيرة وخرجت إلى شرفتي وعبير أزهارها يعبق بالمكان. استهوتني منثورة فيروز البنفسجية لأقطفها إليك. لم أستطع مقاومة عشقي للمنثور ولا لفيروز.

مارست طقوسي الصّباحية بسرعة أكبر من المعتاد، كان لا بدّ من مسابقة الزّمن هذا اليوم، قاربت السّاعة على السابعة، فتحت خزانة ملابسي وتأمّلتها: كيف سأكون اليوم معك؟ وكيف ستراني؟ وبأيّ مظهر تحبّ أن أكون؟ إلى أن اخترت الفستان الأسود الذي كان يحمل حزني على بعدك، واليوم اخترتُه يعيش فرحة لقائي بك.

حملت حقيبتي ومنثورة فيروز ورواية كتبتها في سنوات البرد والصّقيع وكنت أنت بطلها. وأثناء سيري أخذت أحادث نيسان: فيك يا نيسان كانت بدايتي مع الحياة، وفيك بدأت رحلتي مع هيثم، وفيك يا نيسان فقدتُه عندما سجن، وفيك التقيت به بعد غياب سنوات، وفيك كان الفراق، وها أنذا فيك سألتقي به بعد خمسة وعشرين عاماً! ما قصّتي معك يا نيسان؟

وصلت المرآب، وكانت نسمات نيسان تلامس وجهي وشعري. ركبت السّيارة، لم أدرك معالمها ولا من فيها، كلّ ما كان يشغلني

هو أنت، لم تكن عندي شهيّة للقراءة. شهيّتي كانت لرؤيتك فقط، استأذنت روايتي أن أعيش مع طيفك فقط.

وصلت مدينة بيت لحم بذاكرة ممتلئة بك، وأخذت أسترجع صوتك وأنت تصف لي الطريق، سرت على بعد أمتار حتى تراءى لي شارع المهد، بدأت ضربات قلبي تتزايد. أريد أن أركض، أصرخ، أضحك، أبكي، أو أكون طفلة.

وقفت عند المفترق الثّاني، فإذا بالسور الذي يحيط ببيتك، وتغطيه شجرة ورد كبيرة بنفسجية اللّون، تمدّ أغصانها على كل ناحية فيه، وباب عريض مقفل، حاولت فتحه فلم أستطع، وكان لا بدّ من الاتصال بك، فإذا بهاتفك مغلق.

انتابني شعور بالخوف، بالمقت، بتبدد الأحلام. هذه إشارة، كثير من الأشياء تعطيك إشارات بحدوثها بعد برهة من الزّمن.

ربما لا يأتي، ولكن وصولي في الوقت المحدّد كان كافياً لأن يخيفني أكثر.

وبينما أنا في ظنوني تلك، إذا بصبيّ يمرّ في الطريق. طلبت منه مساعدتي في فتح الباب، وصعد فوق السور، وعندما فتح الباب شعرت ببعض الانفراج، فأنا أكره الأبواب المغلقة العالية الضّخمة التي تشعرني بانغلاق الحياة خلفها.

دخلت مسرباً فيه حشائشُ وورودٌ وأشجارٌ صغيرةٌ وشجرةٌ بنفسجيةٌ وارفة الظّلال تغطي السّور من الخارج والدّاخل، فإذا بعجوز تخرج مرحبة بي. سألتها عنك فأخبرتني بحضورك بعد قليل حسب اتّفاق معها، وفهمت منها أنها جارتك وقد ربطتك بها علاقة ودّيّة.

رحبت بي وأدخلتني حجرة الجلوس التي تدلّ على فقر ووحدة وعزلة. تأملت الحجرة وهي تجلس جانبي مشعلة سيجارتها، وأخذت تروي لي اتّصالك بالأمس معها وأنك من فترة لم تحضر إلى البيت بسبب مشاغلك في الأردن. حاولت أن أستمع إليها دون أن أتحدّث، فقد كنت مرتبكة، وكلّ ما في داخلي يُستفزّ، أترقّب بخوف عقارب السّاعة.

استأذنت مني لتعدّ لي فنجان قهوة، وحتى تلك اللّحظة لم أكن أعلم سبب تأخّرك.

اتّصلتُ بصديقتي سلوى التي حاولت تهدئتي، وبينما أنا في عباب هذه الفوضى من المشاعر والأحاسيس، إذا بصوتك اللّاهث المتقطّع يهاتفني معتذراً عن التأخير، ويطلب منّي الانتظار عند العجوز، وستصل بعد نصف ساعة.

كنت أعلم أن نصف ساعتك تربو وتزيد، والطّريق الواحد عندك طرقات، كان هذا ما يزعجني فيك، ورغم ذلك هدّأت نفسي.

وجاءت العجوز بفنجانين من القهوة، وأخذت تقصّ عليّ حياتها وموت زوجها تاركاً لها ولدين، الكبير يعمل في الدّير والآخر في حانوت بمدينة القدس، وحدّثتني عن عوزها، وعذابات الفقر بعد موت زوجها. وأنا أستمع إليها، لم تسألني إلّا عن اسمي وعملي.

في هذه اللّحظة استوقفتني شهيّة الصّمت، واقترحت عليها أن تكمل عملها في البيت. أخذت أتأمل جدران الحجرة، صورة لزوجها على جدار، وعلى جدار آخر صورة للعذراء وعيسى عليهما السلام. لم أشرب القهوة، اكتفيت بلذّة الصمت، وما أن وصلت عقارب السّاعة

إلى العاشرة حتّى سمعت الباب الخارجيّ يفتح، فإذا بك تأتي، من بعيد تأتي، بقامتك المعتدلة، بكتفيك المسنودين، بشعرك القصير المرتب، بلباسك الجميل، قميص رمادي وبنطال أسود. جاءتك العجوز مصافحة إيّاك عند باب مطبخها، وأنا أتأملك بشوق ولهفة وحنين.

احتضنتني عيناك، أشعلتني بوجد، اقتربْتَ منّي، تأملتني بعينيك الحزينتيْن وناجيْتَني بصوت مفعم بالشّوق والفقدان، وهتفت: كم أشتاق إليك. وعانقتك عيناي زمناً ودهراً في لحظات.

اشرب قهوتك يا ولدي، بهذه القهوة أيقظتنا العجوز من احتضان عيوننا وقلبينا وأرواحنا وأخذتَ تشربُ فنجاني الذي انتظرك مثلي. شربتَه بارداً لانتظاره وتوتره مثلي، وأخذتَ تسألني عن أخباري حتى يكون كلّ شيء عادياً، فالأيام التي افترقنا فيها علّمتك الكثير، علّمتك كيف تخرجُ من المواقف وتروّضها مثلما تريد. لم أكن أنا بعد قد تعلّمت هذا الشّيء، وبعد جلوسنا بعض الوقت مع العجوز محدّثا إياها عن أخبار العمل، ومشاغلك التي لا تنتهي، وأنا صامتة، انتزعتَني من شرودي، واستأذنتَ منها، لنذهبَ إلى شقّتك، فكم كنتَ حذراً ألّا تلفت انتباهها لأي تفكير، وخرجنا مودّعين شاكرين لها حُسن استقبالها.

سرنا معاً بعض خطوات، وكان أول ما قابلنا سلّم ليس بالطويل وإنّما ضيّق، مما اضطّرني إلى أن أصعد قبلك وأنت ورائي، حتّى وصلنا باب شقّتك، فأخرجتَ المفتاح من جيبك وفتحت الباب. كم كنتَ حزيناً بصمت، ومبتسماً بحيرة وعمق ألم، شعرتُ بخيبات الزّمن الّتي حرمتنا من أن يكون هذا البيت في يوم مرفأً وحضناً دافئاً لنا. آه يا هيثم! كم مسّنا بَردُ الغربة بعد فراقنا.

ودخلنا البيت، حجرة صغيرة فيها أريكة عريضة، وطاولة تتوسط الحجرة، ومكتبة تزخر بالكتب القديمة والحديثة، روايات ودواوين شعر هي أول ما نهب نظري. أخذت أتأمل في كلّ ناحية في الحجرة، وأقرؤك في كلّ شيء فيها. وضعت حقيبتي على الأريكة، وما أن التفتّ إليك حتّى تأملتني تأمل العائد من خلف جسور الأزمان، ولحظات، فإذا بك تضمّني إلى صدرك، وأغرقتني بدموعك التي احتضنتها عيناك منذ سنين، ووضعت رأسي على صدرك بعد أعوام من الغربة، وأنت تحضنني بيديك الدافئتين وحنوّ صدرك، وحنينك الكبير، بأنفاسك ودفء قلبك ودموعك وتنهداتك. لم أستطع منع نفسي من البكاء في أدفأ لحظة عشتها منذ خمسة وعشرين عاماً، حقا بردٌ وصقيعُ جمّدَ أوصالي وأنا بعيدة عنك، وبكيت وأخذتَ تجفف دمعي بكثير من الحزن والندم، وهمستَ في أذني: لم يتغير بك شيء، شعرُك ولمسة يديك وأنفاسك، كما أنت بعد كلّ هذا الفراق يا جوى.

شعرت أنّك أنت كما كنتَ بروحكَ وقلبكَ وإحساسك، وأمسكتَ بيديّ، من زمن طويل لم تلتق أيدينا فقد أمحل طراوتَها ريحُ الغربة وصقيعُها، وجلسنا على الأريكة، كلّ منّا يتأمل الآخر ويقرأ ذاته ويتعمّق في أنفاق ذاكرته، آه ما أحمق الزّمن الذي أتاه خطواتنا عن مفترق واحد، آه ما أقسى الاغتراب الذي غيّر محطاتنا، آه، وألف آه.

زفرات وصمت وحزن انتابنا، لم يكن من السّهل علينا تحمّل العذاب كلّ هذه السّنوات، ولم يكن سهلاً كذلك تحمُّل هذه المشاعر والذّكريات التي تتلاطم في أعماق كلّ منّا.

قصة أسطورية كنّا بطليها عبر زمان ومكان اختلفت فيهما مشاهد اللّقاء والافتراق نضبت فيهما دموعنا ودم قلبينا، والآن كلّ ما يشغلني

حنينك وحبك الذي لم أشعر بأنّه تغيّر رغم كلّ الهروب الذي كنتَ تتظاهر به، والنّسيان الذي طالما تظاهرت لي به من قبل.

بحرٌ من الحنين عمتُ معك فيه، حبّ ودفء وأمان. أين الزّمن الذي فرّقني عنك، أين الأعوام التي فجعتني بك، أين المفترقات التي ضيّعتني عنك، فلتأتِ جميعاً وترى قلبينا وعشقنا رغم ضياعنا عن عهد اللقاء.

وهتفتَ قائلاً: بماذا يشردُ فكرُك؟

– بالزّمن الّذي أبعدني عنك، بحبكَ الذي لم يتغير رغم زواجك، بحزني الذي لم يمت رغم زواجي، كلّنا يَنعى أمل اللقاء ثانية يا هيثم، فلنبكِ على كلّ شيء، على العمر الذي ضاع بالحرمان، على الحبّ الّذي ما زال وسيبقى في العمق، صعبٌ علينا أن نتعايشَ مع زمن الموت فماذا سنختار لحبٍ محكومٍ عليه بالقهر والسّجن.

– أنا لم أتزوج لأنني نسيتك، أو لأنّ ذاكرتي فرُغت من ذكراك، لا وألف لا، فقد حملتُ ألم خيانتي وحماقتي ببعدي عنك خمسة عشر عاماً، عشتُ فيها مثقلا بالزّمن الذي ما رحمني بَعدك، لا أرى أمامي إلا أنتِ، الحزن رفيقي، والطّرق في قلبي جميعها مغلقة أمام أيّ إنسان، لم تزل ذكرياتك حتى هذه اللّحظة هي نافذتي التي أطلّ بها على عالمي في صباحاته الشّتوية والخريفيّة، فأنتِ أنتِ لم يضيّعك الزّمن من ذاكرتي، وإحساسي بك ينبض رغم أن الحزن يطرق أبوابنا كلّ يوم.

– ولكنك تزوجتَ لتنساني، اخترتَ طريقاً وسرتَ به رغم كلّ ما يسكن أنفاق أعماقك ولم يبق منفذاً واحداً لأن نلتقيَ ثانية، و لم أكن على علم بذلك إلّا بعد سنوات، لم تكن معرفتي بزواجك أمراً أستطيع

تقبله رغم حبي لسعادتك، بل أتعبني كثيراً وأدخلني في متاهات الضّياع، شيء عظيم انكسر في داخلي، ربما الأمل بأني ما زلتُ ساكنة في ذاكرتك ومقيمة فيها، أو ربما الأمل بأننا سنلتقي مهما افترقنا، لأنّ حبنا سيبقى أسطورة.

وقد دعاني حزني عليك لأن أقيم مأدُبة أبكيك فيها بدمع لم ينضب يوماً، وكنت الحاضر في عمق ذاتي تصارع ذكرى الماضي بوجود الحاضر، وبكلّ العذابات التي احتملتُها من أجلك، وبهذه الخيبات التي أضحتِ الذّاكرة مثقلة بها، أفتش عن ثقب أمل لعلّني أجدك فيه فتأخذني الخيبة بأن محطاتِنا تعبت وخطواتِنا تعثّرت في طريق المستحيل.

– وأنتِ كذلك تزوجتِ، ولم أعرف ذلك إلّا بعد حين، لقد نعيتُ حبي، ونحبتُ طويلاً يا جوى! بوحدة وعزلة وعتمة، عاماً بعد عام، وكبُرت وحدتي وأقمتُ مأتماً لنفسي، وأخذ الزّمن يصرّ علي بالزّواج، وفعلت ذلك بعد أن تقطّعت كلّ خيوط الوصل بيننا، ولم يعد لنا أيّ أمل باللّقاء، وها أنا أراكِ وأسمعكِ وألمسُ يديكِ وخصلاتِ شعرك، فهل ما زال شك يراودكِ بأني نسيتُك يوما! قولي شيئا، أدخليني إلى سراديب ذاكرتك لأرى اسمي واسمك محفوراً بقطرات الدّم الذي حفرتُه يوماً على جدار قلبك.

– كلّنا يحفر في عمق ذاكرته اسم حبيبه، ويعيشُ زمناً حاضناً دفء حروفه، هارباً إلى ذكراه من حاضر مثقل بالألم.

– سأودعك الآن بكلّ ما في الوداع من ألم، سأهبك عمراً وحباً لن يموت في يوم، فنحن بطلان سكنا سطور روايتك، وأبطال الرّوايات

لا يموتون. وداعا حبيبتي ! فأنا الدّرب وأنتِ بكل خطوة ستكونين.

– وداعا! بصوت مخنوق قلتُها، بعناق حزين.

الشرفة وحماقة الانتظار

كثيراً ما يأتينا القدر بالمفاجآت في مكان وزمان غريبيْن، يباغتنا من بعد عُمر أسدلت الظلمة عليه ستاراً من العذاب.

على أول رصيفٍ بالحياة التقيت به، تحاضنّا، وتناجينا، وتهامسنا، وعبقنا من الأحلام الكثير، وارتشفنا معاً رحيق الأمل، ورسمنا على جدار الزّمن لوحة غدنا ونقشنا على الشّجر أجمل أمنية لنا، تعانقنا بوجد، وبكثيرٍ من اللّهفة، بعمق حزن ولوعة شوق، أحاسيس أنبتت فيّ وفيه ربيعاً تشتهي العين رِؤيته، وتصبو النّفس إلى التّفيؤ تحت ظلاله.

وصمتت لنا الأكوان، الشّمس والشّجر والجبال والعشب والطّيور، فالكون يسمو بالمشاعر والأحاسيس لأن كلَّ ما فيه ينطق بالحب، وباركت الشّمس عشقنا، وظلّلت الأشجار دفء حضننا، وشمخت الجبال بعظمة إحساسنا.

ولكن لا بدّ وأن يتبدّل المكان، أفقْنا من غفوة مع الزّمن بعدما شربنا

كؤوس العشق حتى الثّمالة، كان لا بدّ من شيء يفرضه الزّمن علينا؛ لأنّه ليس من طبع الدّهر أن يتركنا وآمالنا فلا بدّ من تدخله.

غيّر أرصفتنا، وأقفر أحضاننا وجعل قلوبنا بالحزن تعمر وبالضّنى تثقل. لم يعد صدرك لتضمّني إليه. ولم يعد حضنك ينتظرني لأجد فيه مرساي ومرفئي.

وأخذتنا السّنون، كلٌّ منّا يشرب كأس حزنه ولوعته وفرقته، نتوه بدوامة بحر يحكيك ويحكيني، يبكيك ويبكيني، لم يعد الجرح جرحاً، بل جراحاً أنّت، لا تسمعني ولا أسمعك، وكلّ عام يمرّ يخلق في نفسي دهراً من العذاب، أدعو الصّبر فلا أستطيع النّسيان، كم حاولت أن أنساك، وفي كلّ مرة يطلّ وجهك وعيناك وصدرك الذي طالما حمل وابتلع تنهداتي، يطلّ من بعيد، من خلف الجسور، فتضمّني إليك وأنسى النّسيان بل حماقة النّسيان.

أجل إن نسيتك فماذا يبقى من عمري أذكره؟ فزهرة عمري فاحت في دنياك، وبراعم صباي تفتحت بين يديك.

كثير من الحماقات نرتكبها، وكثير من الجنون ،لكن أيّ جنون هذا الذي كان؟ حبه جنون، وغيرته جنون وبعده كذلك جنون، ورحيله بقارب وحده، وتركي أصارع أمواج الحياة بقرار جنونيّ هو كذلك جنون.

أذكر يومها أن دعاني لمأتم عشقنا، وتوشّحت سواد القلب في داخل غرفة شيّعنا فيها جثمان الحب والعهد بأن نكون لبعضنا، كان غامضاً صامتاً، صمته يسبق كل كلمة له، يهرب بنظراته في زوايا الغرفة؛ كي لا أتأملها، يأتي بالكلمات ويناقضها، يطلب رحيلي بقطار أيامي بعيداً عن سكّة أحلامه، ويصمت، وأنا أستجديه بأن ينطق، شلالات من المتناقضات.

لم أفهم شيئاً حينذاك، لأنه أراد فقط أن أشيّع جثمان حبي،

والأغرب أنّه طلب منّي أن لا أبكي على شهيدي، وأن لا أذرف دمعة وألّا أعاتب قدراً ولا أنحب.

ودخلت عالماً من الجنون، رغماً عنّي كانت العاصفة، وكان لا بدّ من الرّحيل، وانتهى الوقت كلّ الوقت، بل انتهى الكلام، ولم نعد نرجو الصّمت أو الكلام، وغابت شمسنا، لم تعد هناك أمسيات ولم يعد قلب الليل يحضّننا ولا غيمة السّماء تجود علينا بغيث فرحة أو لقاء.

فمن السّهل أن تؤمن بالموت لمن تحبّ وتصبر، ولكن من الصّعب أن تصدّق أنّه تخلى عنك وتركك بعد أعوامٍ من العشق واللّهفة والتّضحيات، ولكنّ الحياة تباغتنا بالكثير من الانكسارات والهزائم التي لم تتركنا إلاّ كطيريْن عصفت بهما عاصفة وأدمتهما مهيضة جناحيهما .

وذهب كلّ منّا في طريق لم أعد أعلم عنه شيئاً، ترك البلد ورحل حتّى ينسى، وماذا ينسى ولماذا؟ فهو الذي سكن دهاليز الذّاكرة ولم يكن يوماً في واجهة النّسيان، رجل أقسم العهد، ولو وزّع الحبّ الذي بين ضلوعه لما وسعته الدّنيا، ولعجز الكون عن حمله، ولو كان للعشق أوسمة لكان أول من يتقلّد ذاك الوسام، فقد كتب بالدّم حكاية عشقه، وكان يساهر الليل كلّ الليل بحرقته ومناجاته وآلامه، ولم يكن حبّه إلّا جنون ولكن لا بدّ للزّمن أن يدور بأيّامه وأشهره وأعوامه.

حملت فيها جراحي المثخنة ومشيت، ساعة أبكي على ضياع عمري، وساعة أدمل جرحي، وأياماً أنحب فقدانه.

عديد من السّنوات انتظرته على شرفتي، أناديه لعلّه يسمعني، ولعلّه يأتي، وأسال ذاتي: هل زاره طيفي ؟هل عذّبه فراقي؟ هل أرّقه رحيلي؟

أسئلة كثيرة وعذابات أكثر تخطر في بالك وأنت تنتظر من تحب، ومن تفارق، ومن ترجو عودته.

وبقيت الشّرفة دون حبيب، دون حبّ أو لقاء، والغيمة التي ترقبنا، تتأملنا حزينة، فهي لم تعد ترانا سويّاً، أو تسألنا عن لقاء في حضن ليل، أو دمعة على صدر، فالشّرفة حزينة كذلك بلا حبّ ولا حبيب، بلا وعد، بلا حضن، بلا غيمة.

فها هي تنتظرنا متألمة لأنّها ودّعت راحلاً، وترقبة لعلّه يأتي، صعب أن تصدّق الشّرفة أنّه لن يأتي، فهي شاهدة على دمعه عندما يفتقد حبيبته، فكم جلس حزيناً يسائلها عن الغياب بلوعة الغياب، وَوَجْد الأعماق حتّى تعود من سكنت روحه، وباللّهفة يتعانقان، كم واسته في ساعات وحدته، وكم جالسها باكيًا عندما رحل مودعاً، وغاب بعد أن دفن بيديه تابوت حبه، وجلس على قبره يذرف الدّمع وينحب.

ومرّ العام تلو العام، أعوام كثيرة، ربيعها خريف، وشتاؤها ضجر، وصيفها لا نسيم فيه.

وأنا أنتظر بحماقة الانتظار، بجنون الأمل، علّه يأتي، ربما يأتي، أطرق الأبواب، وأنادي بصوت مخنوق، ولا أسمع إلّا صدى صوتي، حتى ملّت الطرقات منّي، وأنّت خطواتي.

فأخذت ألملم بقايا نفسي المبعثرة، وأحادث بصمت أعماقي، وأتمرّد على قلبي، وأتجلّد، وأحاور نفسي أن كفاكِ ضياعاً وآلاماً وجراحاً، فمَن أقسم العهد قد خان ورحل مودعًا عهوده، ودافناً جثمان حبّه، فلماذا البكاء؟ ولماذا النّحيب؟ وأخذت أجفف دمعي، وأتصبّر بكثير من العجز، وقليل من الصّبر، أحمل ذكرياتي وأتعثّر في كل خطوة.

كلّما أذكر يوم أن قال لي أنتِ لن تكوني لغيري في يوم من الأيام، ولن أنساك يوماً، سأفديك بعمري، سأهبك روحي، سأحطّم كلّ الصّخور التي تعترض طريقنا، ولن يكون إلّا أنتِ، ستكونين الدّم الجاري في شراييني، أنتِ العشق والمعشوقة، أنتِ العمر، بل فيك يخضرّ عود عمري، أنت ملجئي وسرّ وجودي، أنتِ طرقاتي

وخطواتي ولهفتي ولوعتي.

كانت كلماته تحييني وتسكن في عمق ذاتي، كانت عيونه بحراً على شطآنه ترسو سفن أحلامنا، وتحمل منه كلّ ما يريد فهي التي تنطق في صمته، وفي حزنه وفي فرحه، كم كنت أعشقها! فكلما كانت تطلّ من نافذتي عبر الصباحات الخريفيّة أحاورها: هل يكون بعد ذلك خيانة ويكون غدراً؟ فما أصعب أن نصدّق خيانة من وضع يده على القرآن وأقسم بأن يكون وفيّاً لحُبه ولحبيبته.

أذكر يومها أن أتاني وكان بعجلة من أمره، ملهوفاً مسرع الخطوات على غير طبيعته التي اعتدتها، يسارعني بالحضور إليه دون أن يعطيني أي خبر لماذا هو كذلك أو ماذا يريد منّي؟ وأنا أترقب حالته التي كان يبدو فيها وكأنّه يسرق من الزّمن شيئاً في ساعة غفلة، ويستعجل لحظات غفوتة قبل أن يفيق ويرفض له كلّ ما يريد، وسرت معه دون أن أدرك شيئا مما يحدث ودخلت معه غرفة بأفكار مشتّته لم أر بها شيئاً غير ما فوجئت به وكانت أخته التي يأتمنها على سرّه، ويبوح بمكنونات نفسه إليها تجلس هي الأخرى، ونظراتها تجول حيرى وكأنها لا تدرك ماذا يريد، وحاولت أن أعثر على جواب لتساؤلاتي، لماذا أنا هنا؟ ولماذا هو آت بي بكلّ هذا الاستعجال؟ ولحظات حتى نظرت إلى زاوية قرب الباب فإذا بالمفاجأة التي لم أتوقعها، ولم تخطر لي على بال ، مصحف مفتوح على طاولة وكرسيّان ينتظرانا بالجلوس، والتقطتّ أنفاسي لأسأله ماذا هناك؟ وأخته ترقبنا بعينين تفيضان بالدّمع، وبعد صمت خيّم للحظات لفّني بالخشوع أمام كتاب الله ولم أستطع النطق، حتّى اخترق لحظات الصمت تلك، وقال بصوت متقطّع يبدو فيه كثير من الألم والخوف من المجهول:

– ضعي يدك على القرآن.

ودون أن أحاوره بكلمة ودون تردد وضعت يدي، وكثير من

الخشوع يتملّكني، ووضع يده فوق يدي، وقال بصوت يمازجه الحزن:

– اقسمي بأنك لن تكوني لغيري في يوم من الأيّام.

فأقسمت بكل هدوء، رغم أن الموقف كان يستدعي الكثير منّا لأن نقف على تلال الغد لنرى أو نرقب ماذا سيكون لو أذهلنا الدّهر وأفجعنا بأمانينا، ولكن كلّ ذلك لم يمرّ في خاطري في تلك اللّحظة، وأقسم هو كذلك بأن يبقى وفيّاً، ولن يخون هذا العهد مهما كان، ومن هنا أصبح موثقا يربطني به مدى الحياة، نحن معاً مسؤولان عنه، ورغم كلّ الأحلام التي نسجنا خيوطها معاً، ولوحات الغد التي رسمناها في غفلة عن الزّمن، فإنّ هذا الموثق قربّنا من بعضنا، وجعل كلّ منّا أقرب للآخر من روحه، لا يبزغ فجر ولا تشرق شمس ولا يأتي مغيب إلّا ونكون سويّاً نسكن أعماق ذاتنا، يبكيه ألمي وحزني ويفرحه ضحكي، لا يهدأ بغيابي، وينتظر عودتي باللّهفة واللوعة، وأنا كذلك أسكنته عمق ذاكرتي لا يفارقني طيفه ولو للحظة وقد أخذ من قلبي كلّ إحساسه ومن روحي كلّ وجدها، ومرّت خمس سنوات إلّا أن حدث ما حدث.

كثير من المباغتات تذهلنا في مفترقاتنا وتشتّتنا عن آمالنا، وتأخذ من أعمارنا الكثير، فهو الذي أخذ من عمري عمراً ومن قلبي زمناً، ومن عذاباتي دهراً، ورغم ذلك كانت العاصفة التي أثارت سكون أعماقنا، واقتلعت حقولاً غرسنا فيها بذور الأمل، منتظرة الرّبيع بعد شتاء يحييها، ولكنّ الرّبيع لم يأت، الفصول كلّها جاءت ولم يكن الرّبيع معها، وذلك لأني فقدته في ليلة ربيع في شهر نيسان عندما اعتقل في منتصف الليلة الثالثة عشرة، لا أستطيع وصف ذلك اليوم الحزين، ولا وصف صباحاته الكئيبة، عندما صحوت من نومي فإذا بإحساس غريب يتملّكني ويخنقني، وأخذت أنتظره كما اعتدت ذلك

لأحيي قلبي برؤيته ولكن هذا الصّباح كان مميتاً، كلّ ما فيه يدعوني للبكاء وأنا أستعجل اللّحظات للقائه فإذا بجارة تسكن قربنا وقد كانت تشعر بمن أنتظر، نظرت إليّ بعيون تراقبني وقالت:

– سيطول انتظارك إنّه في السّجن الآن فقد اعتقل منتصف هذه الليلة.

فأجبت بحالة هستيريّة:

من؟ وكيف؟ ومتى كان ذلك؟ بركان فجّر أعماقي شعرت بدوار وكأنّه زلزال حطّم فيّ كل شيء، ودخلت عالم الحزن والحرمان، ليال ملأى بالضّجر والوحدة والبرد والصّقيع، مطرها جليد ولا قمر فيها ولا سمر.

وبكت الأماكن علينا، وأنا لا أعلم عنه شيئاً، هو معتقل في سجن المحتلّ، وأنا معتقلة في زنازين الوحدة والألم والغربة عنه، فهم اقتلعوا منّي كلّ فرحة.

وأخذني الخوف عليه إلى دروب ومفترقات ضبابيّة، تائهةً أسائل عنه كلّ من عاش تجربة السّجن.

ومرت شهور حتى سُمحت زيارته، وكان اليوم الذي سأرى "نديم" فيه برفقة والدته وأخته التي هي صديقته، وكانت اللّحظات الأولى التي مررنا فيها بتفتيش دقيق لعشر مرات وأنا أسير الخطوة الخطوة بأحاسيسَ ومشاعر شتّى من خوف وألم وحزن ولهفة، وكلٌّ منّا ينتظر برجفة يرتعد بها جسده، والجنود الإسرائيليون في كل مكان، من أمامنا، ومن خلفنا، فأدخلونا وأمرونا بالجلوس على مقعد خشبيّ يحاط بسياج طويل، وأخذنا ننتظر بعيون الخوف والرّجاء ولا نسمع إلّا صرير أبواب تفتح وتوصد، وجنديّ يضع يده على الزناد، حارساً الباب، وآخر يصرخ بمن يحيد ولو خطوة عن مكانه، وكلّما ابتعدت عيونهم عنّا قليلاً، وقفنا برهة نستطلع ذاك الممرّ

الطّويل الذي سيأتي منه السّجناء، بعيون تتوق بالدّمع لرؤية الابن والأخ والحبيب.

ومرت الدّقائق وكأنها شهور، كاد قلبي فيها ينفطر ألماً من لوعة الانتظار، وكانت هي اللّحظة الأكثر اضطّراباً وهو قادم من بعيد، وخلفه جنديّ بعينين تكاد تسحق كلّ الموجودين، وجلس خلف سياج يحتلّ دفء اللّقاء ويبعثره، ويخطف لمسات الحّب؛ ليسجنها عبر ثقوبه التي لا نكاد نرى منها إلّا لمحات وجه يفرح بألم ويبتسم بحزن، وجلس بلمحات متعبة أثقلها عذاب السّجن، ووالدته تبكي بدموع الحنين، وأخته تهبه الأمل بأن الفرج قريب وأن الثلاثة أعوام ستمرّ والوطن أغلى من كل السّنين.

وكان قدومي إليه مفاجئاً، لم يُخْفِ اشتياقه الكبير، ولا لوعته ولهفته، ولكن بكثير من الغموض، عيونه هي الّتي حادثتني وناجتني ووعدتني بأن لا ينساني، كانت نظراته تحمل العهد والحبّ ولكن بكثير من الخوف، وقال فيها كلّ شيء رغم أنّه لم يقل شيئاً.

وبعد نصف ساعة صرخ جنديّ بصوت يزلزل أرجاء المكان:

"أن انتهى الوقت"، شعرت بتلك اللّحظة، بهزيمة الزّمن الأولى لحبي، فمن كان معي كلّ لحظة ألقاه بنهار الدّفء وربيع الحياة أصبح لقاؤه الآن من خلف قضبان وحراسة جنود، فهي الهزيمة الأولى، ولم أكن أعلم أنها ستجرّ وراءها الكثير من الخيبات.

وتوالت الانكسارات عليّ بعدما أخذتُ أعدّ نفسي لفرحة خروجه من السّجن بعدما مرّت ثلاثة أعوام بضنى لياليها، وثقل شهورها. وكانت الأيّام تعمّقه في ذاتي وحرمانّي منه علّقني به، حتى أصبحت لا أرى الدّنيا إلّا به ومعه، وكان اليوم الذي خرج فيه من السّجن هو اليوم الأول في تاريخ فراقنا حيث لم يكن هو، أجل استقبلت في هذا اليوم حبيباً لم يكن هو الحبيب الذي ودّعته قبل ثلاث سنين.

فعندما سمعت بخبر مجيئه لم تسعني الدّنيا أخذت أسارع الطّريق بالخطوات لأسابق الدّقائق، وكلّ ما في نفسي يهتف ويناجي "نديم".

وأرسم لوحة للقائي به. الحنين يغالبني واللّهفة لرؤياه تدخلني في عالم من الجنون. حتى اقترب من بعيد ولم يكن هو من عشقت ولا مَن فارقت ولا هو الذي ارتحل عنّي، كلّ شيء فيه تغيّر: كلامه وصمته ولهفته، لم يكن الحبيب الّذي وهبته ذوب روحي، واحتلّ ذاكرتي وكان تاريخي، إلى أن كانت الهزيمة.

بكثير من الحزن أخذت معطفي المبلّل بقطرات الألم الصّامت، ومشيت بخطوات تئنّ، وجرح لن يندمل. وأخذتني الظّنون بفكر شريد ضبابيّ لا يتضح فيه شيء، وكلّ يوم يمرّ يخلق في نفسي دهراً ثقيلاً بعذاب وحرقة ووداع.

وذات يوم صيفيّ من شهر تموز، التقيت به في الحرم الجامعيّ، حيث كنت طالبة في السنة الرّابعة في كلية الآداب، ولم أكن على علم بوجوده هناك، كنت متناثرة الذّاكرة ومبعثرة الرّوح ولا أدرك من الواقع إلّا الألم الذي أسافر معه في كلّ الدّنيا.

فإذا بصوت يهتف: "سما".

فشعرت وكأنّ أبجديّات اسمي تأتي من خلف جدار العمر البعيد، أصغيت بطول تأمّل، وأدرت ظهري فإذا هو يبعد بنظراته حتى لا أبحر في عيونه التي تنبئني بما يخفيه، وقال بكلمات، بل بحروف معدودة: أريد لقاءك اليوم بعد الظّهر في بيتنا. ولم يمنحني فرصة التفكير بالرّد وأدار ظهره ومشى بعيداً، لم يتملّكني حينها إحساس إلّا الخوف والرّجفة، كنت قد أدركت الانكسار الذي سيكون لأنّ خيبة اللّقاء بيني وبينه بعد خروجه من السّجن أعطبت الحلم، وكانت كلوحة ملونة تعاريجها بألوان ممتزجة بالاغتراب الموجع.

ومرّت ساعتان وأنا مثقلة بالألم والإحساس المميت، ولكن رغم ذلك أنهيت محاضراتي ومشيت بخطىً تسترحم الدّنيا هذا العذاب. ووصلت البيت واستقبلتني والدته وحضنتني وغمرتني بحب حزين، وذهبَتْ لتبلغه بحضوري، وجلستُ على تلك الأريكة الوحيدة في غرفة والدته أنتظره، فكلّ شيء يتوحد معنا حينما نتألّم فإذا هو قادم بخطى وئيدة، فجلس على حافة سرير أمه مقابلاً لي وبصوت منهَك:

– أدري أنك أخلصتِ لي وأنّ وفاءكِ بلا حدود، وأدرك تماماً عذابك وانتظارك لي وأنا في السّجن، لأعودَ حتّى تكونين لي ويكون اليوم الذي انتظرناه في عهد طويل من العشق، أنا لست الخائن الذي ربما تتخيلين ولكن من أجل حبي لك بل لعشقي أقول:

– لا تنتظريني فأنا وأنت لن نلتقي فطريقنا سُدّ بصخور المستحيل ولم يبق هو الطّريق.

ارتجفتُ ودار بي المكان واختنقَتِ الكلمات بل ماتت كلّ الأبجديات، ولكن لا بدّ في هذه الخيبة من صرخة تهزّ الدّنيا وتقول: هل بهذه الكلمات القليلة تنتهي سنين من التّضحيات.

–وهل لي أن أعرف ماذا هناك يا نديم؟ حتى لا تكون الغادر في نظري بعد كلّ هذا الوفاء.

–لا أستطيع يا سما فتجربة السّجن أقصى مما تتصورين فهم يعطبون كلّ أحلامنا. والطريق طويل يحتّم علي أن أكون وحدي.

–وهل تتركني في تلك اللجّة من الألم يا نديم ؟

–هي الحياة بعد ذلك لك ستكون.

وصمتَ وشرد بعيداً وبكى وأنا بكلّ الدّمع ودّعت عشقي وشهيدي.

وترك الحجرة وخرج إلى أن جاءت والدته تسألني عن سوء حالته وعمّا حصل بيننا، فأجبتها بأنني لا أدرك شيئاً مما قال ولا أعرف من

أمره أيّ شيء.

لم تُخفِ مشاعر القلق والحزن لتلك النهاية بيننا، فقد كانت تتمنى ذلك اليوم الذي أصبح فيه زوجة لولدها الذي عانت في سجنه الكثير. بكت كثيراً ولكن الدّموع لا تستردّ شيئاً مما نفقده أو تعيد لنا يوماً من فقدناهم.

ودّعتها ومشيت، وخطى الزّمن تلاحقني بوجعها الآتي من خلف المسافات، وتطول بي تلك المساحات من الوحدة، بعدما فقدت عمري القادم، ولكن ما العزاء في انكسار روح بات الألم يعتصرها وصدى العزلة يتردد في جنباتها وعمقها.

وهكذا توالت الأيّام على قلبي لا أراه إلّا بصمت وهروب، حتّى عيونه التي كانت هي المرفأ لم تعد ترسو بها إلّا السّفن المحطّمة، وكذلك بقينا حتّى كان اليوم الذي افترقنا فيه.

بكثير من الحزن تودّعنا لندخل منعطف جديد لا النّحل فيه يلثم الزّهر، ولا نرى الشمس إلّا وهي ترحل عن آخر أفق لنا. فضاعت أمكنتنا وأطفئت كلّ قناديلنا ومحا الزّمن خطى انتظارنا في ذلك الدّرب الطّويل. وأتى الليل ورحل معه نديم إلى هناك في آخر خطوة ممكن أن تكون، وبقيت أنا على تلك الشّرفة التي تبكينا وأواسيها في عزلتنا عنها واغترابنا بعد أن كان العمر بنا سيكون زهراً يفوح بعطره أينما نكون.

ومرّت الأعوام لا يرى أيّ منّا الآخر، تهت في مفترقات كثيرة، أسائل عنه الكون بفصوله، وحبات المطر والشّجر، والبحر بموجه وشطآنه، المغيب والأفق، الليل والقمر، ولا من مجيب. حتّى حجزت له مكاناً في الذّاكرة لا تستطيع يد الزّمن أن تقترب منه، ومشيت طرقاً طويلة مضنية ألهث فيها من المتاعب التي نالت من روحي و قلبي، وركبت قطار الحياة دونه أنزل في محطات كثيرة بعيون تائهة تدور

هنا وهناك لا أدري أيّ الأبواب أطرق فكلّها موصدة أمامي، محطّات و محطّات تتغيّر و تتبدّل وأنا حاملة تاريخ عمري متعثرة الخطوات.

وسرت و كأنّ الزّمن واقف مكانه، حتّى كان ما لم أتوقعه، تمرد غريب انطلق في ذاتي على ذاتي وعلى ضعفي وأخذت أجمّد دمعي و أداري جراحي، و غدوت أتناساه، وكلّما أذكره، أتذكّر خيانته و غدره و ضياعي بعده حتّى يكبر التّحدي.

وقد منعت نفسي من رؤية كلّ من يذكّرني به، ولكن في أوقات كثيرة شعرت بالهزائم تلاحقني ولا تقوى نفسي على نسيانه، وكم من الأعوام مرّت بكثير من الخيبات وقليل من الانتصارات، ولكنّ المكان غيّر ذاكرة الزّمن، ولكي تتحدّى النّفس يلزمك الكثير من الوقوف معها، ومخاطبتها، تغلبها حيناً وتغالبك تارة بالألم، ،وأخرى بفلسفة الحياة، حتّى أتقنت فلسفة الحزن وفلسفة الضّحك بمنطق جديد، أحيا وأموت من جديد عبر محطّات لم أكن يوماً على ارتباط معها، فهي تنقلنا عبر أنفاق لم نعهد سريّتها، ولكن هي الحياة لا تعطيك شيئاً إلّا وتأخذ منك الكثير.

في مفترق خريفيّ

لقاءٌ غريبٌ في مساءٍ لم يكن كغيره منذ أعوام طويلة، مساء يثقلني ويُشجيني ويُقلقني، ساعاته ليست كالسّاعات، ودقائقه ليست كالدّقائق.

لم أكنْ على موعدٍ مع القدر بأن أتخيّلَ لقائي به، بعد كلِّ تلك المحطّات التي تهنا فيها عن العناوين والأمكنة.

كان هذا المساء حافلاً بعطر رؤياه وبعبير ذكراه، ربما ليتعمّق في كلّ ذرة في كياني بعدما صارعني زمن الفرقة، وأتاهتني ضَبابيّة الطرق عن عنوانه، وربما ليرسم على جدار المغيب صورة للقاء مفعمٍ بالوجد والحنين لماضٍ احتلَّ الذّاكرة.

ثمّةَ ساعات تأتيكَ بغتة وتعيشها بما لم تكن تتخيله، وثمّة أمكنة تقودك إليها دون خيار منك، وثمّة أنفاق في ذاكرتك تعبُرها دون تحديد، وثمّة أشياء تمر معك لا تجد لها تفسيراً، وثمّة إشارات تنبئك بما لا تعلم.

في ذات يوم صيفيّ من شهر تموز كنت أجلسُ على مكتبي في البيت أجالس أوراقي ووحدتي، فإذا بإحساس غريب يتملكني ويشجيني بألم شوق واندفاع لسماع صوته ورؤيته، لم أستطع مقاومة هذا السّيل الجارف منّ ذلك الإحساس، فصعبٌ أن تشتاق لحبيب ودّعك وداعاً أليماً لا رجوع بعدَه، أسكنتَه عمق ذاكرتك، وربما أسكنك في واجهتها.

كثيرٌ من الآلام استوطنَت عمقي في تلك الساعة، لم أذكرْ أني كنتُ بشوق له كما شعرتُ مثل هذا اليوم، لم أحتملْ هذا الجيشانَ العاطفيّ اللّامحدود، فشرعتُ أتصل به على مكتبه، حيث كان يعملُ محامياً في مدينة القدس، ولم يُجبْ، وحاولت عشرات المرّات دون جدوى. فأخذت أُشغل نفسي بالقراءة تارة، وبالكتابة تارة أخرى، فلم أستطع أن أخمد ولو جزءاً من هذا التدفُق النفسيّ الهائل.

بكيت طويلاً، فثمّة حزن يسكنك عمراً ويصبح جزءاً من كيانك، وثمّة دموع تحفر أخاديد في حياتك.

ومضى وقتٌ طويلٌ، وأنا بقلق لا أجد له تفسيراً فإذا بهاتفي يرنّ، وما كدت أرفع السماعة حتى جاءني صوته، لم أصدق! المفاجأة كانت أعظم من قدرتي على فهم ما جرى؛ وذلك لأنّ كلانا يحاول محادثة الآخر دون علم لأيّ منّا بذلك.

صمتُّ وشردتُ بفكري بعيداً، فأخذ يسألني :

– هل أنت بخير يا ريتان، ما بكِ؟

– بخير يا عمر، أين أنت؟

– أنا لست بالقدس جئت في قضية من الصّباح إلى هنا فهل نلتقي؟

– نلتقي! بعد ثلاثة أعوام سأراك؟

– أتدري أني منذ ساعات وأعماقي تفيض بشعور يتيهني ويقلقني

عليك كأمواج تتلاطم وتتكسرعلى شاطئ قلبي. فكم أفتقد رؤياك!

هل تدري أني أحاول الاتصال بك من ساعات على مكتبك ولم ترد.

– حقا! أيكون ذلك ما يسمونه الهتاف الروحي؟!

– ربما!

وأغلقت الهاتف، أصابني ذهول كبير، لم أسأله عن المكان الذي سنلتقي به ولا الوقت.

أخذني الشرود بعيداً، من اللّحظة التي تقابلنا فيها أنا وعمر، حيث كنّا في نهاية الابتدائية معاً، وفي كثير من الأوقات كنّا ندرس سويّاً، وكان مبدعاً في كتابة مواضيع الإنشاء، وفي ذات يوم طلبت المعلمة منّا كتابة موضوع عن حرب العراق مع إيران، ولم أكن أميل إلى الكتابة في مثل هذه المواضيع، فكتب لي موضوعاً أخذت عليه أعلى علامة بين طالبات صفّي.

ولم تكن المسافة بعيدة بين بيتنا وبيته، وكانت هناك قرابة عائلية بيننا لذلك كبرنا معاً.

وأضحى عمر شاباً جميل المظهر، عيون بُنيّة اللّون تجذبك بسحرها وبشرة ذات سمرة وشعر بُنيّ داكن، ومنكبين عريضين وطولٌ متوسط.

وأخذَ يسكنني وأسكنه، ويوماً بعد يوم حتّى صرّحَ كلٌ منّا بمشاعره للآخر، وبدأت حكايتنا مع السّنين والشّهور والأيّام والسّاعات.

أراه في كلّ شيء ويراني في كلّ مكان، وكانت الخمسُ سنوات التي لم نغبْ فَيها عن عيون بعضنا هي الرّبيعُ الذي لا يأتي بعدَه خريف، ولكن ... ماذا بعد لكن؟! بعدها كان الكثير من الألم والخيبة. سافرَ إلى الخارج بقرار من والده هو نفسه لم يدركْ سببَه فأرسله عند أخٍ له في الكويت ليعيشَ عندَه ويكملَ دراستَه .

ولم يكنْ رفضَه هذا الأمر بالشّيء السهلِ، قاوم ولم يُجْدِ ذلك نفعاً أمام حزم والده.

وهكذا دخلتُ أنفاق عُتمة الحياة، لم يبق قنديل واحد يضيء تلك العُتمة.

كلّ الدّروب موصدة، وكلّ الأحلام أصبحت مبعثرة، لا مَوْقد نستدفىء به في أمسيات الشّتاء، ولا عبير لقاء يفوح في جنبات المكان.

ومضت الشّهور، كثير من الشّهور بلا خبر عنه، سوى رسالة حملت حرقته وضياعه ودمعه، أرسلها مع قريب له يصف فيها آلامه وضنى روحه، وأنّه حتماً سيعود وهو باقٍ على العهد.

وتوالت السّنون حتى أكملتُ دراستيَ الجامعية في قسم الخدمة الاجتماعية، وكان معي طيفاً وروحاً في كلّ المفترقات، ذكرياته تؤْنِس روحي أينما أكون.

كنتُ مميزةً في شخصيتي لا أشعر أني أشبه من حولي بقناعاتي أو ما أحبّ أو أكره أو ما أرنو إليه أو أحيد عنه.

كنتُ متمردة على كثير من النّظم الاجتماعية التي لا تعطي الفتاة حقها في التعبير عن رأيها، أجدُ عندي الجرأة في قول لا لكلّ ما لا أقتنع به. ودفعتني تلك الشّخصية لأن أكون مستقلّة في قراراتي وطموحاتي لا أهاب أيّ شيء في تحقيق ذاتي.

ومن هنا لم أكترث بمرور الزّمن وأنا أنتظر عمر دون علم بما آلت إليه الأيّام، ولكن هناك أقداراً تحتّم عليك ما لم تفكر يوما قبوله ولا تعطيك فرصة الاختيار، وإنما تضَعُك تحت جبروتها لتفعلَ ما تشاء.

وهذا ما كان، في منتصف الطّريق، فقد عُرِّيتُ من أي قوة للرّفض، وأُدخلت إلى عتمة الموت لأختار دون تردد "الزواج"، لم يكن هناك أبوابَ تُفتَح إليّ بعد مرض أمي الذي كان مصارعاً لها مع يد الموت،

ولا وجود لأب يحتضنني بالأمن وبذلك انتُزِعت مني الرّغبة في الحياة، كلّ شيء أصبح معتماً.

أشتَّم رائحة الموت في كلّ الدّروب، ولم يكن زواجي موفقاً، حيث امتلأت ذاكرتي بعمَرْ، ولم يكن أيّ رجل آخر قادراً أن يحتلّ ولو مكاناً صغيراً في قلبي غيره.

تخيّل أنك تعيش مع إنسان وكيانك ممتلئ بإنسان آخر تهتف باسمه، وتحيا بأنفاسه، ولو كانت تأتيك من أقصى بلاد، تمُدّك بالحياة وتروح.

كبرتْ متاعبي ومعاناتي في ظل زوج لا أشعرُ إلا بأنانيّته ومزاجيّته، وكلما حاولتُ التعايشَ معه ازددتُ بُعداً عنه، وأخذتُ ألملم بقايا نفسي المنكسرة حيناً وحيناً آخر أتصبّر بقليل من الأمل، مغتربةً عن ذاتي، وبقينا هكذا كلّ يعيش دنياه بمفرده حتى انفصلنا، وذهبَ كلّ منّا في طريقه، واعتدْتُ على هذه الحياة.

فثمّة آلامٌ تعتادُ عليها وتفتقدها إذا غابتْ عنك.

"الرّيحُ عصفتْ بكلّ شيء"، عبارةٌ وصلتني منه بعدما قدمَ من السّفر، وعرفَ عن زواجي، لم يحتمل ذلك وتمنى لو لم يعد، ومن هنا بدأت غربته الحقيقية، تلك الغربة التي احتلّتني، واستوطنت كلّ كياني من أول يوم رحلَ فيه.

كم من الفرص نضيِّعها بإذعاننا لأقدارنا، وكم من الفقدان لذاتنا يرافقُنا في دروبنا ومفترقاتنا، غريبة هذه الحياة عندما تنتظرها يأتيك الموت على غير موعد، فكم من الأحباء خطف منّا! وليس الموت وحده؛ بل السّفر كذلك يأخذ أحبابنا ولا يعيدهم إلّا بعد أن تُمحل قلوبنا في مفترق خريفيّ، لا يوجد فيه إلّا الأوراق المتساقطة الصّفراء التي تتناثر هنا وهناك.

وكذلك كانت عودة عمر لي بعد غياب عشرة أعوام في مفترق

خريفيّ.

آه ما أشدّ إيلام الغربة! تحكم عليك دهراً وتستوطنك زمناً بالقهر، جاء صوت عمر في ذاكرتي من بعيد "أين أنت يا ريتان" فانتزعني من شرودي، ولملمتُ أوراقي وكتبي، وكان قد مرّ وقتٌ وأنا لا أدري كيف لم أصْحُ على ذلك.

فأسرعت بتغيير ملابسي، ونزلت من البيت، وأوقفت عربة لتنقلني إلى قلب المدينة، حيث كنت أسكن بعيداً عنها، ووصلت.

فوقفت لأنتظره على رصيف يعجُّ بالنّاس والعربات، وأصوات الباعة تتعالى وتتداخل بأصوات المارة وصنوف من البضائع تزخر بها المحلّات التجاريّة.

لم أشعر بارتكاز على الأرض، أحسست وكأن الطّريق قد فرغ من كلّ شيء، وقد هلّت طلّته من بعيد، ها هو عمر أتى بعيونه التي أقرأ فيها سطور حكايتنا، وتأملته وهو قادم، وعيونه تخاطبني بشوق كبير، وكان فرحه ينتابه حزن، وخلف ابتسامته تكمن دمعة.

في هذه اللّحظة سافرَتْ ذاكرتي بقطار سريع قطع طريقاً طويلاً إلى الوراء، إلى ذاكرة الطّفولة غير المنسيّة، ولكنّي الآن أراه عبْرَ نوافذ الماضي التي لا ولم تغلقْها رياحُ الحاضر.

حَضنني بوجدٍ عينيه ولهفة حنينه.

– اشتقت لك.

– وأنا كذلكَ تقتُ لرؤياكَ ....

– ما بك شاحبة اللون على غير عادتك هل أنت مريضة؟

– لا أبداً ولكني متعبة قليلاً.

ومشينا سويّا لا ندري إلى أين سنتجه، صمتنا معاً، فكم من الذّكريات حامت في مخيلتي.

وبينما أنا مسافرة بذاكرتي فإذا به يخرج من صمته وذهوله

ويسألني:

– أين سنذهب؟

لم أجبْ، صمتُّ وأخذتُ أفكر بمكان يسكن ويعشش فينا ولو لساعات وقلت:

– البيت القديم الذي شهد طفولتنا وصبانا وحكاية حبنا!

– وهل يسكنه أحد؟

– جيران قدامى في جزء منه، والآخر قد تهدّمت بعض جدرانه من القصف أيام الانتفاضة الثّانية .

– وشجرات الزيتون؟ وحوض النعناع، والحاكورة التي تتدلّى فيها قطوف العنب؟ هل ستحكي لنا حكاية ونسمعها قصتنا؟

– نعم يا عمر سنسْمَعُ في كل مكان صوت الماضي.

ركبنا العربة وسارت بنا وقلوبنا كميناء ترسو فيه مئات السّفن، حتى طلب من السّائق الوقوف دون أن أدري لماذا!

وترجلنا، لم أسأله لماذا نزل في المنتصف، بل كانت الطّريق هي التي تخبرني وتقول لي: كم مشيتم هنا! وكم وقفتم على أرصفتي! وافترقتم على مفترقاتي.

أجل إنّها شهدت خطواتنا ونحن نلهو ونلعب في العيد وبعد العيد.

لا يوجد مكان إلّا وفيه ذكرى، نقف في كلّ خطوة نتسامر معها، تصافِحُنا ونصافِحُها ونستجديها بأن تدوم ولو لساعات، حتى يعود الماضي كلّه.

ومشينا نتأمل، وطيور الماضي محلقة أجنحتها فوقنا، ونحن نناديها علّها تطير بنا ولا تعيدنا إلى الحاضر.

وكلّ منا فرحَهُ مظلَلٌ بغيمة حزن ممطرة وبدموع صمت بين اللّحظة والأخرى.

وطلّت شُرفات البيت من بعيد، ولوّحت لنا أغصان الزّيتون مرحبةً

بنا أحباباً طال غيابُنا عنها.

فها هي ما زالت تذكرنا، وهي تُظللُنا بأوراقها، ونحن متكئون على أغصانها، فما زالت تبكي حنيناً لقصتنا، وما فتئَت تعاتبنا على فراقنا، فهي مشتاقة لأن تضمَنا كما ضمتنا قبل أعوام بعيدة، وها هي الجدران التي طالما قفزنا عنها قد تصدَّعت من برد الاغتراب، وصقيع الفراق، أخذت تبكينا بدموع فرحة اللّقاء، صافحناها فعانقتنا بشوق وحنين.

نظرتُ إليه، فإذا هو فَرِحٌ بحزن ومبتسمٌ بدمعة ومُتأوِّهٌ بصرخه، يُطلق الزَفرةَ وراء الزفرة، ويُخرج الآهة تلو الآهة، وكأنّه لا يصدّق رؤية المكان الذي طالما حَفِل بلقائنا أعواماً طويلة.

فقد تربّى فيه وترَعرَع في ظله طفلاً وشاباً، فالمكان هو المكان رغم ما بَلِيَ من الجدران وما تهدّم من بعض البنيان.

ولم نترك أيّ ركن في المكان إلّا واستذكرنا فيه كلَّ شيء، منذ كنتَ الصبي "شادي" الذي تغنّت به فيروز، إلى المسافر الحامل حقائب الذّكرى على كتفين أتعبتهما الغربة.

"كثيرٌ ما يفقدُنا الزّمن حميميّاتنا»، قلتُها له عندما اخترق صمتي بسؤاله:

– هل تذكرين هذا الجدار الذي جلسنا عليه أعواماً نقصُّ القصصَ ونروي الحكايات؟ هل تخيلتِ سفراً في ذلك القطار الذي يحملنا عبر محطّة بعيدة عن الحاضر وآلامه.

– لا لم يأتِ في خاطري عبر السّنوات الرّاحلة سوى دمعة الرّحيل والخشوع لترانيم الذّكرى، لكن لم أكن أصدّق أننا سنلتقي يوما في هذا البيت لنقرأ حُروفا حفرناها على ذلك الجدار بعد الفراق الطّويل ولو لمرة واحدة، لم أتخيل مصادقةَ القدر لنا ليغمرنا بلقاء بلا موعد.

– ريتان، كلّ ما في نفسي يمنعني من الدُّنوِ من الحاضر، يا لها من

مأساة وملهاة. هل هذه حماقة؟!

– ربما تكون كذلك يا عمر، خيبات الزّمن تجعلنا نتصادق مع الحماقات لنشعرَ بوجودنا الأول والأخير.

– مرت ساعتان يا ريتان، دقائقها جمرٌ ولهيبٌ أشعلني بالحنين لكلّ شيء في هذا البيت، لسطحه وجدرانه وحبات زيتونه، لغيمته وشرفته، ولكن لا بُدَّ وأن نرحل.

– عمر، هل ستعود ثانية إلى هنا؟ فها هي الساعة تدقُّ لتنذرنا بالرّحيل ولا بُدَ للمحطّة أن تتبدّل.

– سأعود يا ريتان ما دام فيّ حنين لذكراك.

وبدأ الظلام يفرد جناحيْه، وأخذنا نودّع كلّ ركن بقلوب خافقة وعيون حزينة، نتأمل كلَّ شيء: الشّجر والحجر والثّرى والأغصان والجدران، ولم نترك مكاناً إلا سلّمنا عليه سلام المودِّع المرتحِل.

وغادرنا كلّ شيء، وكلٌ منّا يحمل في ذاكرته مدينةً بأسوارها وبنيانها وناسها، ولكن المدينة الآن خالية من كلّ شيء سوى الجنود الذين سيطروا على جزء كبير منها، ولا شيء أمامنا غير أسلاك شائكة، تقسِّم الطرق، وبيوت تفرغ من ساكنيها، وتعمر بغير أهلها.

نظرت إليه، فإذا هو واجم لا يرنو إلّا لصوت ذاكرته الذي يأتي من خلف غابات الرّحيل والاغتراب عن المكان والزّمان الذي كنّا فيه.

هكذا هو، يصمت في أوقات أحتاج فيها لأيِّ كلمة منه.

أخذت أحادث الطّريق في مدينة تنام مبكراً، فالسَّمَرُ لم يعد جزءاً من يومياتها، فقد مات السُّمّار، ولم تعد قصص تروى عند أهلها.

لم نستطع احتمال هدوئها المغتصب، فأشار إلى عربة أَتتْ من بعيد وركبناها بشتّى المشاعر التي تؤجّجنا.

حُزْنُ فرحتِنا بدأ يتسلّل إلينا، دقائق ويذهب كلّ منّا في طريقه

ودنياه، ألمٌ شرعَ يحيط بكلّ ضلوعي، وكان لا بُدَّ أن أقاومه كشريد لاهث يصارع طريقاً لا يجد باباً يطرقه ليلتمس فيه أمناً يلجأ إليه.

وبينما كنت أتجول في غابة حزني، ناجتني فرحتي المسروقة أن لا أضيّعها، وأكون معها في عمرها الذي أشرف على الذّبول، وكذلك قرأت في عمر كلّ ما أشعر أنا فيه، كانت عيونه تحمل سُفناً من الذّكريات التي اقتربت من الشاطئ لترسو عليه، وبصوت ممتزَجٌ بِغَصّة الألم سألته:

– هلّا أقدم لك شيئاً كجزء من ذاكرتي.

نظر إليّ بشرود وصمت قائلا:

– لقد قدّمت لي عمرك ولم أَصُنْه فما الذي ستقدِّمينه بعد؟

– ساعة يدٍ تحمل نبض قلبي في كلّ دقة من دقاتها، تحمل زمناً أثقلني بالمتاعبِ لبعدكَ عني وغربتك، وثوانيها جمرات اكتويتُ بنارها.

– أجل بل كان عُمْراً من الضياع يا ريتان.

ومدَّ يده، فوضعتّها على معصمه، فأخذ يتأمل بها رغم ضوء السّيارة الخافت، وقلت له:

– لتبعثَ الماضي الذي في قلبك كلّما مات، فربما تكون عقاربها تعيد لنا عمراً ضاع منّا وأضاعنا.

– ريتان، تقولين كلّما مات! لم يمتْ في يوم رغم السفر والغربة، فكيف يموت الآن بعد أن تعمّق بأخاديد وأنفاق سريّة أُسْكِنُهُ فيها!

لحظات السّعادة في هذا الزّمن غير مسموح أن يُطمَعَ فيها يا عمر. ربما أحتاج إلى المزيد من قواميس اللّغة لأن أبحث عن مُسَمّىً جديد للحظات هذا المساء .

نزلنا من العربة والظّلمة تتهادى علينا من كلّ جانب، وكانت اللّحظة الأخيرة لحظة قاسية كأنّها الحلم الذي يوقظك من نوم هادئ.

شعرت بإحساسٍ ممتزج بالألم، لحبٍ مقهور في مدينة تُنَوَّمُ فيها الأحاسيس.

طلب من السّائق انتظاره دقيقة أخيرة، وتَرَجّلَ مودعاً وكان وداعه لي كراحل إلى بلاد بعيدة.

عمر، لا تنس هذا المساء الذي كان بعد عهد من الزّمان، احفره في عمق ذاكرتك.

أنتِ يا حبيبتي وهذا المساء ستكونان المحطة الأخيرة التي سأضع فيها أمتعتي، وأنهي فيها سفري وغربتي.

ودعته ومشيت، وأخذ يلوِّحُ لي بيده مؤجّجاً داخلي بمشاعر شتّى حتى وصلت بيتي، ورميت نفسي على الأريكة، وبكيت طويلاً، كان لا بدّ من البكاء في هذه اللّحظات الحميميّة، وأغمضت عيوني شوقاً إلى النوم الذي يجافيني كثيراً في مضجعي، ربما يكون الآن هو المهرب الوحيد.

رنّ جرس الهاتف:

– آلو.

– عمر، هل وصلتَ القدس؟

– أجل، اسمعيني جيداً، أريدك لي يا ريتان، لن أضيّعَكِ مرة ثانية، فهذا المساء أجّج مشاعري ووجدي، سنتزوج يا ريتان.

– نتزوج يا عمر!؟

– ما بك تقولينها وكأنك لا تعرفين ما يسكنني من حب لك، إلى متى سيبقى حبنا مقهوراً؟

– عمر، أنا ...أناااا

– ريتان، لقد أدهشتني بصمتك وترددك، ما بكِ، هل هناك شيء تتكتّمين به عنّي بعد كلّ تلك المشاعر التي نحيا بها ومن أجلها؟

– عمر، أعرف أنكَ لم تَنْسَني يوماً، ولكنّنا الآن في مفترق خريفيّ،

ولن أستطيع أن أكون لك؛ لحبي ووجدي عليك.

– ريتان، حرقتِني بكلماتك، ماذا هناك؟

– هناك مرض يطاردني ويتغلغل في أحشائي.

– مرض؟ أنت مريضة بماذا يا ريتان؟

– بما لا يُرجى شفاؤه يا عمر.

– ماذا؟! ولمَ أخفيتِ عليّ؟

– لأنّي أحبك وأخافَ عليك من الحزن، يكفينا ضياعاً يا عمر.

– ومن قال أنكِ لن تشفي؟ لن أتخلى عنك مهما كان.

– لا يا عمر، لن أعذبكَ بدموع الموت، فحبنا هو دوائي، وسأحيا به الأيام الباقية لي.

– المرض لن يأخذك مني، والموت لن يخطفك. يكفينا خيبات هذا الزّمن، فقد كانت خيبتي الأولى حينما أتيت ووجدتك متزوجة، والآن ما بك تدخلينني في خيبة أخرى؟

– عمر، اجعلني أودّع الحياة وأنا قويّة بحبك لا ضعيفة بتعذيبك، لا تبك علي، ولا تحرق الذّكريات بلهيب لعنة للزّمن، اتركني في قلبك بربيع عمري لا بخريفه، إنّ عمري يشرف على الذّبول.

– حبيبتي لماذا قُدِّر علينا العذاب؟ لماذا لا يتركنا الزّمن وآمالنا؟

– يكفيك هذا الألم، إنّ ذاكرتي ممتلئة بك، اجعل حزنك عليّ بعد الموت لا قبله، فكلّ نَفَسٍ من أنفاسي أعيشه بك، فالغياب أشد حضوراً من الحضور.

– كيف سأتركك وحدك مع قسوة المرض؟ كيف سأكون لو تخليت عنك؟ أريدك معي.

– لا أريد أن تراني هزيلة ضعيفة، أودّ أن أكون معك دوماً زهرة متفتحة لا زهرة ذابلة.

عُدْ إلى البيت القديم كلّما استطعت، وعش ذكرى هذا المساء.

غـــابـــات شـــــوق

غابات من الشوق تمتدّ في كلّ أنحائي، وفي كلّ طيّاتي البعيدة، فيكبر فقدانك ويطول غيابك، لتأخذك مساحات شاسعة من الحنين لتكون أنت في تلك البقعة الوحيدة التي تضجّ بأنين الغياب، وأنا هناك خلف كلّ الغيوم المتطايرة أستظلّ بردائها المحتوم الذي يدثّر بقايانا ورماد من ذكرى ليالٍ كانت بنا ستطول، لولا البرد والصّقيع، لولا كلّ هذا الجليد الذي تراكم فوق قلبينا من طول سنين.

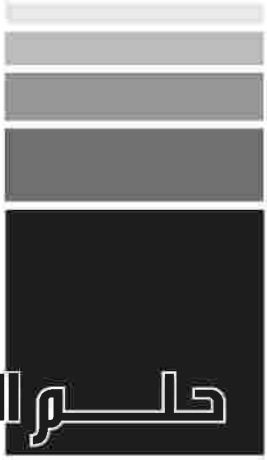

حلـــم المسـافات

عندما كنتَ تتأملني وأنا أجترّ رداء حزني، وأغيب عن آخر بقعة في مسافاتك البعيدة القريبة، أدركتَ أنتَ والزّمن الذي غيّبنا أنّ المكان سيكون مختلفاً بعد سنين لو التقينا فيها، وأن اللّا عنوان الذي ربما يظلّلنا يوماً سيكون هو النّهاية المهزومة لتلك الأعوام التي كنّا بها عاشقيْن واهمين بقوة الزّمن.

فيا جرحي ويا حزني المدفون أنت، فالعمرُ أتى بك فكيف تغدو أعوامي دون خطاك التي تمرّ قبل خطى الزّمن؟! وقبل أن تتبعثر ثنايا الرّوح من هنا، وتنثر زهرات القلب على صفحة فضاء من الرّمال، فلا الأفق حَضن حلمنا ولا أنت جئت قبل أن يزهر في مفترقاتنا الشوك.

دروب مـــن العـــزلـة

أتوارى خلف مسافات الاغتراب، وأتدثّر بعزلتي عن حياة كانت تعمر بذكراك، وغدت خاوية بحلم قد بات هزيلاً ينتظر المطر على غصن يتعرّى أمام سنين كلّها جفاف، فلا جاء المطر ولا غنّى الغيم أنشودة الاشتياق.

فما كان لي حياة لولا تلك الجنبات من طرق في ذاكرتي التي أنت فيها، والتي لا يبدو لها نهاية، تعتلي فضاءها شمس حزنك البعيدة، وقصاصات من حلمك البعيد الذي غاب باغترابك وما عاد إلّا العزلة بكلّ الـدّروب، فهل أدركتَ حزني يا من بجرحك أدميتَ غربتنا؟ وأضحيْت وجع العمر وما فيه من صدىً غريب يأتي ويروح.

شـــــواطئ العـــــمر

عندما تاهت بي كلّ شواطىء العمر عن مرفئي، حينها أيقنت أنّ رحلة الضياع ستطول بعدد الأعوام، وبطول كلّ تلك المنعطفات التي أُطفئَتْ بها قناديل الرّوح، وتراكم فيها دخان احتراقي، بل موتي في كثير من دهاليز ذاكرتي المثقلة بخراب بتُّ أنا وهو توأمان، فلا هو يفارقني ولا أنا أجد سواه.

بغيابك تتسلّل الغربة إليّ من كلّ مكان ويقتلني الحنين، فكلّ الثقوب باغترابك موجعة، بها الحزن وبها الشّوق المرير.

على عتبات العمر

على عتبات العمر الماضي، وبوّابات الزّمن القادم تمرّ بنا الأعوام بمحطاتها، وبزواياها المهجورة، وذاكرتها المعطوبة الخاوية، ونقف طويلاً على شرفات العمر، وبوّابات الغد نسرق من الآتي عناوينه؛ علّها تحمل مكاناً يكون هو العنوان الأخير في مفترقات تتلفّع بالضّباب والغيم، بدخان السّنين، وبرماد قلوب كانت هي المرفأ، وأضحت في الفضاء لا ذكرى لها غير الألم، آه على عمر بات يتمزق، وعلى ذاكرة خاوية بكل السّراب تتلوى، وألف آه وآه على من كانوا يوماً هم الرّوح التي غدت بفقدانهم تحتضر، وعلى أمكنة بكت طويلاً عليها الشّهور.

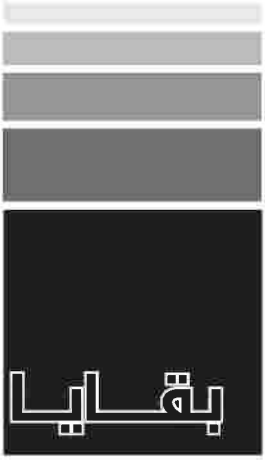

بقـــايا مـــن الـــوجـــد

ثمّة جروح تمحونا وكأنّنا لم نكن، وثمّة خيارات مات معها كلّ شيء حتّى الضّحكة، وثمّة حبيب أبقى بك الحزن لآخر محطّة فارقك بها، وافتقدته الفقدان الأخير، وثمّة فرحة سلبناها من الزّمن، وكانت بداية عمر أتى بكلّ المطر وعندما صحا الزّمن أدركها وانتزع منّا كلّ خطواتنا في طرق كانت بتلك القناديل وفيء شجرات الصّنوبر، فأخذ منّا العمر ووهبَنا بضع سنين، وعلى موائدها كسرات من الحب المستميت، وبقايا وجد نقتات بها في اغترابنا عن كلّ دروب كنّا سنلتقي فيها اللّقاء الأخير.

فربما تكون حياتنا مرهونة بوجود إنسان، فإذا أخذه الغياب يرحل معه كلّ شيء، ونفتقد معه حتّى أنفاس الحياة .

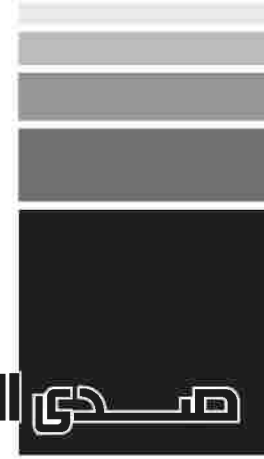

بكلّ المنعطفات كنت، وبكلّ التواءات تلك الدّروب التي خطونا بها رغم المقاعد الفارغة ورغم الرّيح الآتي من بقعة كانت هي الأمرّ، ورغم خطى الزّمن الذي عبر كلّ الجسور المستحيلة، ورغم خريف أعوام كانت هي الأبعد عن الحلم، ورغم طرقاتنا التي يتراكم بها الجليد، ورغم برودة الأمكنة التي اجتازت كل طيّاتنا، إلّا أنك ستبقى حلم العمر القادم يا أغلى حتّى من العمر.

فلم يبق لي بعدك غير ذاكرتي المثقلة، وجسور اعتليتها، لعلّي أجد بقايا خطىً مررتَ بها من هنا، فما وجدت غير صدى أنيني يرتاد كلّ أفق .

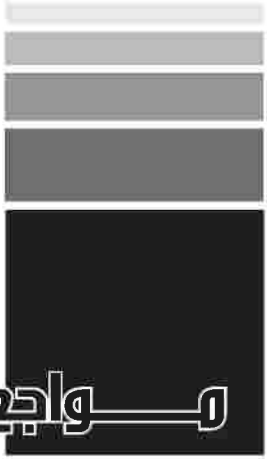

مـــــواجع القصيـــد

ضجرة تلك المساءات دونك، يعتليها الحزن الغريب، ووحيدة أنا في غيابك، وموجعة بك وبصمت الأيّام عن لقاء لنا في أيّ مكان يكون.

تعبث بنا الرّيح، وبشجرة الصّنوبر التي مررنا بها و كان ظلّها يوماً مسكننا الوحيد.

حلُمنا و سكرنا بشوقنا المجنون، وثملنا من وجع القصيد، لتكون أنت الحروف وكلّ مواجع القصيد.

فهل يغدو حاضرنا يوماً سراباً وأكون فيه ذكرى تأخذك إليها السّنون ؟؟

عمـــر بلـــون الرمـــاد

يا عمراً يأتي بلون الرّماد، وبطعم فقداني لك، أشتاقك يا من يكبر فيّ حزني عليه، ووجدي له، وتتعدى بك الرّوح كلّ المسافات، وتعبر بك كل الحدود المحتجزة لحقائبنا المسافرة، ولأحلامنا ولأشيائنا التي هي أغلى حتى من العمر الذي كان بك وسيكون.

فقدانك هو الموت لي، واغترابك تعدّى بي كلّ الجسور، يا من كنت وستبقى مرفئي بعد كلّ رحلات العبور، رغم الصمت ورغم حزننا الغريب.

فأنا وأنت والعمر على ملتقى الطّريق البعيد.

صمت الياسمينة

عندما كنّا سويّاً كان كلّ شيء أمامنا بلون المطر، وبلون تلك الغيمة التي تظلّلنا كي لا يرانا الليل والحزن، وعبرنا طرقنا نتلمّس ضوء القناديل، وصمت المساء، وكنا لا نأبه بوجع تلك الذّاكرة التي تخيفنا مما هو قادم، حتى وصلنا ذلك المقعد الوحيد الذي كان بانتظارنا، فقد كان كلُّ شيء هناك على الموائد: وجد ولهفة، وآهات بعد، وصرخات حنين، عناق وصمت اشتياق كبير، أكبر حتّى من البحر، ومن الغيم، ومن الأفق، وبكى مقعدُنا، وصَمتنا نحن على لقاء كان كالحلم، وربما قبل لحظات كان سيكون، ولكن هبَّت الريح والرَّمل غطّى كلّ شيء، حتّى المنعطفات التي كنّا بها سنسير، وما عدنا نجد المقعد ولا الغيمة ولا القنديل، وذوى الزّهر على جنبات الطّريق وصمتتْ تلك الياسمينة لحزننا ووداعنا الأخير.

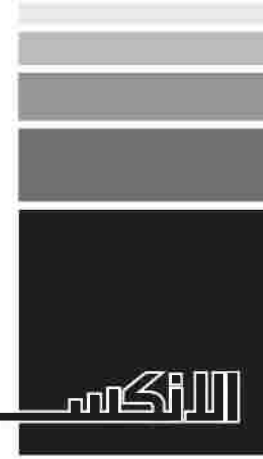

الانكســـار الأخـــير

لم أكن أدرك أنّ ما بنيناه سيؤول يوماً للّا شيء، وأكون في حياتك مجرّد ذكرى تغالبها الليالي بالنّسيان، وتغالبها أنت بالفقدان، لم أكن قد أدركتُ بعد أنّ الحلم آل إلى أنقاض في أيام، وبات حلمنا حزيناً باهتاً في أفق أخذتَ تغمض عيونك عنه، فكثير من الحزن يقتلني وكثير من الخيّبة، وكثير من الانكسارات.

لم أعد أثق بالغد ولا بك ولا بـأيّ كان في هذا الوجود، بعد كلِّ هذا الانكسار الأخير الذي آلمني منك، حتى أوصلتني إلى العزلة، فهي العالم الوحيد الذي نجد فيه دواخلنا بعد خيباتنا اللّا محدودة، فلعلّي أجد ذاتي الفارغة إلّا من مواجعها، ولا أجدك في سراديب ذاكرتي، لعلّي يوماً بك لا أكون.

المحطّة الأخـــــيرة

في المحطّة الأخيرة التي احتوتنا وحقائبنا السّريّة بعناوين الرّحيل التي اخترناها لمنعطفات عمرنا القادم، لم نكن نعلم حينها أنّ فقداننا لحميميّاتنا التي ائتلفناها في لياليا التي كانت باردة، وأدفأنا زواياها بأنفاسنا التي تقاسمْنا فيها روح الحياة، سيوصلنا لموت محتّم لكلّ شيء فينا، وسنصل بلا محالة إلى العدم، فنحن اجتزنا كلّ محطّات التّحدي لأن يحيا كلٌّ منّا دون الآخر، فهل كنّت تدري أنّنا لم نعد بعد كلِّ هذه المواجع سوى بقايا من حطام .

فيا زمناً كنّا فيه، فأدركَنا حزن الغياب، وخيبة الوجع اللّا محدودة في زمن صعْب، حتى في رسم البسمة على شفاه المارّين من خلف جدر الذّاكرة المنسيّة، فلا نحن بقينا فيهم، ولا أبقى الريّح جزر الوجدان الذي احتلوه حيناً بعد حين.

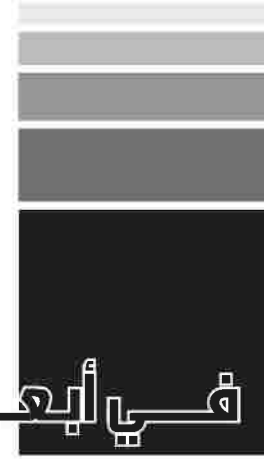

في أبعـــد بقعـــة

ما كان العمر يوماً دونك إلّا كالزّوايا الخاوية، ليس فيها إلا صدى صوت أنينها الوحيد، تموت بوجعها وعزلتها وصمتها الغريب، فما كان الحبّ دونك ولا كان الاشتياق إلا كفضاء ليل غريب، فأنت العمر القادم من طيّات الزّمن البعيد.

فعندما كنّا هنا، كان كلّ شيء يبدو بلون القمر، بندى الصّباحات الدّافئة، بعطر الياسمين، وعندما رحلنا بحقائبنا الأخيرة، وغادرنا ذاتنا وذاكرتنا التي اختزنت روحينا بكلّ عشقها، فغدونا أشبه بكرة فارغة تتقاذفها كلّ المستحيلات، بعد أن كان في يوم كلّ المستحيل ممكناً، وها نحن أضحينا في أبعد بقعة ممكن أن تكون.

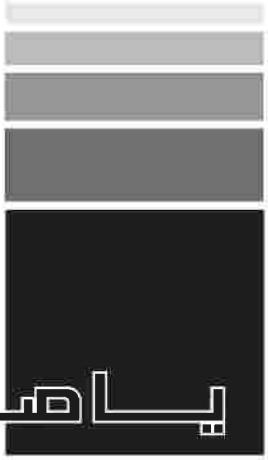

يـــا صـــدى العمـــــر

يا صدى العمر الآتي من البعيد البعيد، من هناك، من أبعد مسافة تحمل صمتي وغربتي، ومن آخر حلم كان، ومن أقصى خطوة خطوتها دونك، ومن فقدانك الذي يعذبني، من آفاقك التي رحلتُ إليها معك، وما وجدتُ غير الطيور التي هجرتْ أعشاشها لحلمنا الذي كان، وبقيت الأعشاش دونها وبقينا نحن دون الحلم.

أتعبتني يا زمن الاغتراب بعدما اعتليت الرّوح بشتّى ألوان الفقدان. فوحيدة أنا كشجرة سّرو يلفح بها الرّيح، تشكو الغربة بحفيفها المكلوم، وبصدعها الكبير، فلا مرت عنها الخطى، ولا داوى جرحها إلّا الموجَع الغريب، فشاخ بها الحلم وما عادت تحلم من جديد، موجعَة يا شجرة السّرو بغربتك وعزلتك، وبك يؤنس كلّ غريب وحيد.

حـــدود الصمت

كلّ الموانىء وحيدة بحلمنا الذي ما وجد يوماً إلّا الموج ليكسره على كلّ الشواطىء، فما وصلنا نحن ولا سكننا إلّا الخوف من رحلة عبورنا.

فما زال الزّمن يفجعنا حتّى بطيف من نحب، وما زال يخترق فينا حتّى حدود صمتنا، وعزلتنا التي جعلت حتّى عالمنا الافتراضي مقتحماً، وسريّتنا التي هي عالمنا الدّاخليّ الذي به نحلم ونأمل ونرسم الحروف على أبعد بقعة في خريطة المستحيل.

أتـــى المســـــاء

أتى المساء، وما زال غيابك يحتضر فيّ حتّى ذكراك التي أسكنتها في خلاياي، حتّى البسمة التي تنتظرني في ذاك الأفق الذي يحتضن حلمي، حتّى الأمل البعيد الذي رسمناه ذات ليلة في حضن زمن كان قد غفا لحظة عنّا، حتّى أنفاسي التي قاسمتك بها الحياة، حتّى أنا، حتّى أنت، إلى أن أتت كلّ المساءات دونك، فاحتضر كلٌّ شيء.

أسمى وزوز

صدى المرافئ

عندما نذرت عمري لك، كانت الأعوام تحترق من أجلك رماداً، وأنا أفتديك بكلّ الزّمن الذي كان لي، وما أن اجتزنا أول جسور المستحيل، فإذا بك تعبث بالرّيح القادم وتغيّر خطاك وتتعرّى حتّى من ذكرانا التي كانت لنا رداء نتدثر بها في ليالي الصّقيع. فما وجدنا المرافىء إلّا بصدئها المكلوم من طول انتظار على عتبات البحر البعيد.

فحزني فيك ليس على رحيلك، ولكن على تلك الخيبة التي لم أدركها في يوم كنّا فيه روحاً لا روحين، وذاتاً لا ذاتين، ولكنّك أيقنت حماقتي بجنوني بك فآثرت الغياب، وقتلت ما بي من آخر أنفاس عشت بها منك.

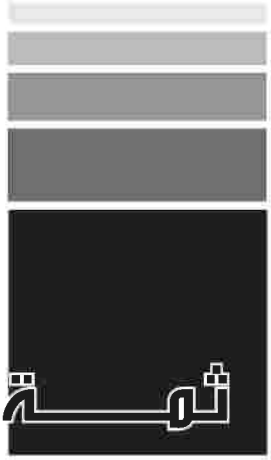

ثمـــة جـــــروح

ثمّة أشياء نسكنها ولا تسكننا، وتأتينا ولا نريدها، ونرتجيها ونحرم منها، وثمّة أمكنة اغتصبت فينا حتّى حلمنا، وأزمنة آلت إلى الخيبات بآمالنا، وثمّة جروح تمحونا وكأننا لم نكن يوماً.

وتصمت تلك الزّوايا التي أركنا فيها حقائبنا الأخيرة، ونرحل بجرحينا لا بجرحنا، بقلبينا لا بقلبنا، بعمقينا لا بعمقنا، بصمتنا وحزننا، وما بقينا إلا كظلٍّ ترسمه الغيمة، فلا بقيت الغيمة ولا كان الظل.

كفانا أيّها الغربة! فقد احتلّتنا مساحات الاغتراب حتى وصلت أدقّ تفاصيلنا.

حـــدود الصمـت

حتّى الغيمة، لم يعد لها أفق تركن فيه ذاكرتها المبعثرة، حتّى الزّهر أضحى يتوق للثم النّحل، حتّى المساء لم يعد يحفل بنا حبيبين أقصتهم دروب الحياة عن محطّة الانتظار، فلا عاد الغيم ولا النّحل ولا المساء، وبقيت أنت خارج حدود الصّمت، تعبث بك الرّيح وتذوي بحلمك الأيّام.

وعندما نوقن أن عزلتنا ربما تقصينا عن مرارة هؤلاء الذين يخترقون فينا حتى تفاصيلنا الدّقيقة نكون قد وصلنا أقصى درجات العشق للوحدّة التي تجعلنا استثنائيّين حتّى في مواجعنا.

يا صدى الرّيح الآتي من الموانىء الخاوية هل لك أن تحمل قلبي الذي عبثت به الأيّام طويلاً وتقصيه عني علّي أحيا دونه بلا انكسارات ولا خيبات طالما أوجعتني وتركتني رماداً أطبق الفضاء بشتّى ألوان الضّياع!؟

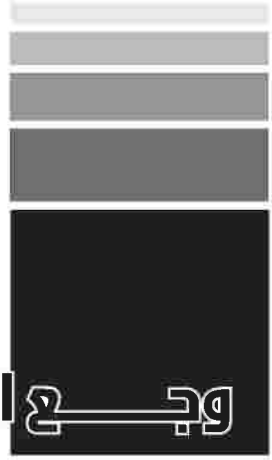

وجـــع الكلمـــات

سأجعل من صمتي سنديانة أتفيأ بها بعيداً عن الدّنيا وضجيجها، وأحمل حزني على رابيةٍ لأكون هناك وحيدة، وأرسم من ألمي لوحة العمر التي بتعاريجها ذوى الزّهر وفني النحل، وأجعل من دموعي قصيداً يبكي شذيّات العمر، لكن أبداً لن أكون وإنساناً يطاردني فيه الزّمن المرّ.

فعندما ندرك وجع الكلمات الصّامتة، نكون قد تدثرنا بألم الأبجديّات، وبكلّ التواءات تلك الحياة التي ما تركت لنا فرصة الاختيار حتّى ولو بالحلم.

كم هي ضجرة تلك الأيام، باهتة، وكلٌّ ما فيها يدعوك لموائد العزلة لتثمل من كاسات الانكسارات التي ما فارقتك يوماً وتقتات كسرات الألم وحدك بمآسيك التي لا يعلمها إلّا أنت، وتبقى على تلك الموائد تجالسك الوحدة ويؤانسك الاغتراب، وتجعل من حزنك غابات تعتزل فيها تلك الحياة.

حلـــم القمـــر

تنهكني طول المسافات بيني وبينك، وتحتلّني تلك المساحات الشاسعة بالخيبة، فلا أنت تأتي ولا يكون حلم القمر، ولا الطّير يغنّي في أعشاشه، ولا يلثم النّحل زهر الأفق، فكلّ ما في الكون بات موجعاً بوجعي بك، وبحزني عليك وبصمتي معك.

فكم أحتاج لعمر افتراضي تكون أنت فيه؟!

بعدما احتلّني غيابك بهذا الوجع الذي أدرك كلّ ثناياي، فأكون قد وصلت آخر خطوة في نهاية الحياة، وفي آخر لحظة ممكن أن أعشق فيها يوماً إضافياً من عمري، فما أنا في غيابك إلا زوايا خاوية تنعى الحضور.

أفتقدك وأفتقد حلمي معك، يا من تغيب حتّى في أقرب المحطّات التي اعتادت حضورنا فيها.

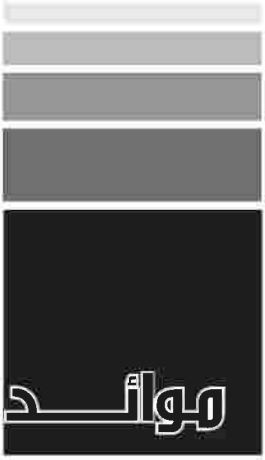

موائـــد الغيـــاب

في فقدانك يبدو كلّ شيء حزيناً حتّى زهرة المنثور، وتلك الياسمينة التي ذوت بغيابك حنيناً، وأوجعتَها بأنين مساء لا تدعوه إلّا لموائد الغياب الحزين.

وكل الموانىء حيرى، ترقب رجوعك الأخير، حزينة هي دوننا، ملأى بالحنين، ونحن من خلف أسوار الموج، تعلونا صرخات اللّقاء المستحيل، فهل للحظة سنكون؟ ربما، ولكن! من أين يأتي زهر الأفق الذي يلثمه النّحل وتتغنى به الطّيور؟.

حـــزن الأبجديـــات

ضاعت منّي حتى الحروف التي أكتب قصتنا فيها واندثر الحلم بعدما تبدّدت آفاقه في فضاءات الغياب.

فلا أتى ربيع أنتظر فيه خطاك، ولا ردّد الصّدى اسمك في غابات اللقاء.

فكتبتك بكل مفردات اللّغة، وبكيتك بكلّ حزن الأبجديات، حتّى تاه اسمك في وديان الافتقاد، وبقيتَ الرّاحل، وأنا من يعزّي نفسه بوجع الكلمات.

متاهـــات الـــرّفـــض

عندما أيقنَتْ الحروف غيابك الطّويل الذي يدخلني في متاهات الرفض لهذا الحاضر المثقل بالانكسار، أدركَتْ كلّ الأبجديّات حينها أنّ الرّيح الآتي من عمق الرّوح سيبعثر كلّ اللّغة التي ستحمل وجعي وانكساري؛ لينثرها في فضائك الرّحب ويأتي بلغة حزنك لتعانق لغتي ويصبح ألم غيابنا هو الرّحيق.

أرصفـــة الغيـــاب

بطعم كلّ المدن، وبحزن كلّ الزّوايا الخاوية، وبصمت كلّ الأزقّة، أشتهي وجودك ولو من خلال ثقوب غفل عنها الزّمن، ومشى عابراً طرق العمر الآتي، فهل ستكون هناك وتعانق ذكرى الأماكن التي حَفَتْ باشتياقنا؟ أم ستعانق صدى آهاتنا التي أطبقت الآفاق، وعلينا حَزِن النّحل وبكى شجر الصّنوبر، فليت الفرح الذي يحتضر على أرصفة الغياب تأتيه أنفاس الحياة.

علــــى أبــواب الــزمــن

ألتقيك على أبواب الزّمن الموجع، أدق باباً باباً، فيلفّني صدى صوتي الحزين، وتورب الأبواب من وجع العمر المتعب المُضنى بخطى الأعوام، وينتظر معي الصّبر، وتمرّ كلّ الأعوام دون أن تأتي، دون أن تمرّ خطاك من هناك، وأبقى والصّبرَ على قارعة الزّمن المرّ، فلا أنت أتيت، ولا أنا استطعت البقاء من خلف جُدُر العمر الصّعب.

أسمى وزوز

ترانيم العشق

إذا متّ فلتزرع على قبري شجرة من القصيد، ورتّل على روحي ترنيمة من ترانيم عشقك الأزليّ، فإنّي أعشقك بكلّ تفاصيلك حتّى التي تؤلمني بها.

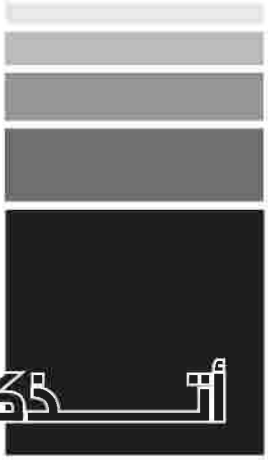

أتذكر ليلة كنّا فيها نبكي جثمان حبّ ودعناه؟ أتذكر كم كانت الزّوايا واجمة لا تستطيع احتمال هذا الوداع؟ أتذكر تلك الغيمة كم بكت؟! أتذكر ونحن نرتدي ثياب الرّحيل الأخير في آخر خطوة كانت لنا بل في آخر مسافة كنّا بها؟ أتذكر أم نسيت تلك السّنديانة التي شاخت لحكايتنا؟ إنْ سلوتني ورقصت على جرحي فلن تجدني إلّا من خلف أسوار الموت. وربما أعود إليك مضمِّدة جراحي، وربما أكون برداء ما ألفتني فيه أبداً، ولكن حتماً لن أكون يوماً في دنياك.

صامتة تلك الصباحات

صامتة تلك الصّباحات التي تأخذني فيها العزلة لأن أبكي كسنديانة وحيدة، يلوح بها حنين الأفق وريح الخريف، وحيدة أنا كشجرة سرو جالسها الحزن واستظلّها الزّمن المرّ، وغريب أنت وعابر على خطى القلب تتراقص على عذاباتي ومواجع المساء الوحيد.

ذاكـــــرة المستحيـل

ثمّة وجد يأخذك هناك، إلى الحلم البعيد، إلى مستحيل سيكون، ولكن أللمستحيل ذاكرة بها نحن سنكون؟

هي الحروف، تلك التي تحمل استثنائيّاتنا في مواجعنا التي لا يدركها أحد سوى تلك الأبجديات التي تنتفض ألماً، وتصغي لصدانا حتى في أكثر اللّحظات حميميّة مع الزّمن في ظلّ حبيب باتت تنأى به الخطى.

المحطّات الأخـــيرة

ليت المحطّات الأخيرة التي تودّعنا بها رسمت لنا لوحة ممزوجة بألوان الشّتاء الذي أصبح فصل افتراقنا وفيه سكب مدامعنا ولبسنا عبر دروبه ثياب المواجع. فكثير ممّن فرضهم الزّمن علينا، ولا يأخذون مكاناً في ذاكرتنا، وقليل هم الذين يحتلوننا رغم كلّ المساحات الشاسعة.

فثمّة أمكنة نعبرها دون خيار منّا، وثمّة أناس يعبرون حياتنا رغماً عنّا، وثمّة بلاد نسكنها ولا تترك فينا أثراً، ويأخذنا الحلم لأخرى، وتسكننا قبل أن نسكنها.

الصباحات الخريفية

في صباحاتي الخريفيّة تطلّ عليّ ذكرياتك من نافذتي، فأراك تأخذ وشاح القلب هارباً، فأطلّ عليك وأناديك بصوت خنقته جراحات الفراق، فلا أنت تسمعني ولا أنا أستطيع النّسيان.

فما عدتَ يوماً إلّا لتقول لي وداعاً من جديد، فقد اعتدتَ الرّحيل وأنا اعتدتُ معك الوداع.

فها أنت رجعت ثانية بعد رحيلك؛ لتودّعني من جديد، وتزرع الآلام فيّ من جديد وتتركني كوم رماد من جديد. ولو رجعت لغير ذلك لما عدت. فأنت الرّاحل دوماً، والحامل حقائب ذكراي لترميها مع الرّياح.

على مرافئ الوجدان

على مرافىء الوجدان ترسو سفن محمّلة بشتّى المشاعر كلّ مساء، وأحباب احتلّوا هذه المرافىء كلّ الوقت، فلا موج ولا مدّ ولا جزر يستطيع إنزالهم من جزر الذّاكرة، فهم يبحرون معنا في وجداننا، وهم معنا في خيباتنا وأفراحنا، تحتويهم ذاكرتنا وكلّ طيّاتنا حتى الاستثنائيّة منها، فهم رغم كلّ شيء موجودون ومزروعون في خلايانا.

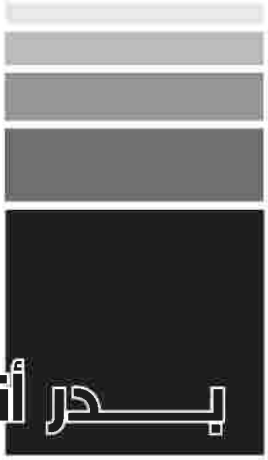

بدر أنت في عتمة سمائي، ونجمة تؤنس وحدتي في هذا الفضاء الذي لا حدود له، وعيونك بحر حزن تناثرت فوقه تلك السحابات التي تمطر اشتياقاً، لكن لا أرض تحضن تلك القطرات ولا وديان بعدما بعثر أحلامنا البرق ، ولا رشفة من كأس لقاء تروي ظمأنا وعشقنا، ولا نخلة تستظلّ تحتها تلك الزّفرات والاشتياقات التي عبرت جسور الزّمن الذي مرّ يوماً من هنا، فمن أين أبدأ معك خطوات بحلم الطرقات البعيدة؟ فحبّ المستحيل أنت وما سواك يستوطن ذاكرة يخلد بها مقعدك رغم الرّيح الذي ينثر ثرانا الذي حضن وَجدَنا وفوقه بنينا مسكننا.

ورغم الرّيح سيبقى صوتك الذي يأتيني عبر البحور ويعبر صدى أنفاقي هو الملهم لي في سطور نكتبها على صفحاتنا، ولوحة نرسمها بيدينا التي ما التقت يوماً لنعلّقها على كلّ جُدر العمر.

لو كانت

لو كانت الطرقات ترسم لنا خطوطاً متوقعة لسيرها، وأنبأتنا بها لما وصلنا منهكين من خيباتنا وتعثّرنا، ولأدركنا تماما نهاية حماقاتنا قبل مصادقتنا لها، فكم نشتهي البكاء دفعة واحدة عندما تفاجئنا الدّنيا بفقدان من نحبّ.

غريبة هي الحياة، تعطيك في وقت لا تحتاج منها شيئاً، وتأخذ منك كلّ شيء في وقت تحتاج أنت فيه لأيّ شيء.

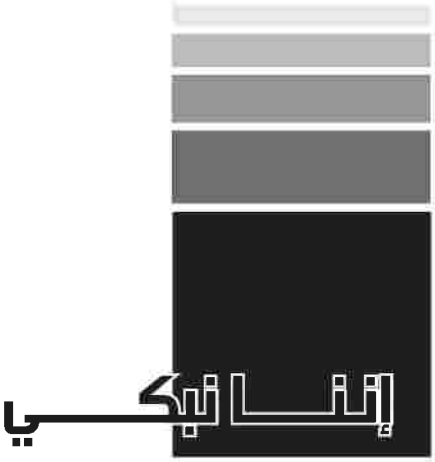

في أوقات كثيرة نضحك ونبكي دون أن نعلم ما الذي أبكانا وما الذي أضحكنا. ولكنّنا حتماً نعلم من الذي زرع فينا الألم وأوجعنا.

إنّنا نبكي لا لأنّنا بحاجة لغيرنا أن يرى دمعنا، ولكن لأنّنا لا حاجة لنا إلّا البكاء.

فلم نتقن بعد كيف نبتسم، ولكنّنا أتقنا تماما كيف نبكي.

فثمّة أناس يزرعون في طريقك الآلام، وفي قلبك المواجع، ويرحلون دون أن يمسحوا لك دمعاً، فهؤلاء لا يستحقون منك إلّا دفن مواجعهم في قبر النّسيان.

أسمى وزوز

رغم كل الحدود

موجعة هي الغربة، تتلوى بها وحيداً وأنت تجرّ قدميك متعثراً لتصل مفترقاً آمناً طالما بحثت عنه فتجد نفسك غريباً لا يعرفك أحد ولا تعرف أنت إلّا نفسك.

فعندما نجتاز قفار الحياة ونحن لا ندرك ماذا ينتظرنا هناك، وتباغتنا آلام لم نكن قد اعتدنا عليها، ندرك حينها أنّ الحياة ليست سوى محطّات سفر منهكة، نركن أمتعتنا فيها للحظّات ونرحل ثانية بآلام كثيرة وأحزان عميقة.

فنأي المسافات بيننا لن يمنع قلوبنا من أن تنبض بهم، وعيوننا تتوق للقائهم، وأرواحنا تستصرخهم، فنحن رغم كلّ الحدود، يجمعنا الأفق والذّاكرة الممتلئة بعطر ذكراهم، فهم يحتلّوننا رغم كلّ المنعطفات الخريفيّة.

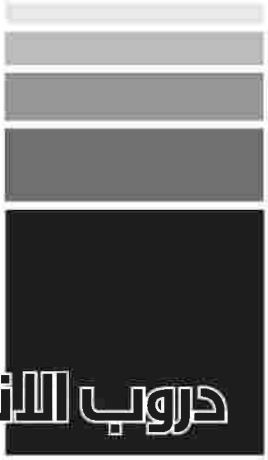

دروب الانتظـــــار

ليتني أستطيع عبور المنعطفات الشتويّة دون أن تكون قابضاً على عصف الرّيح بيديك الرّحيمة لكي لا تعصف بي، ليتني أستطيع العبور وحدي دون أن تضمّني عند غياب النّجمة وبكاء الغيمة.

فغياباتك الموحشة تدخلني في عزلة ووحدة في دهاليز ذاكرتي المتعبة. ولم أعد إلّا زائرة ليل لمقهى غيابك الموجع.

فقد أنّت الخطى في دروب الانتظار، لا سمر ولا حضن ولا زهرة يبلّلها ندى الصّباح فأتى الليل ولم تأتِ، أتى الحزن وموجعات الانتظار ومات كلّ شيء بعصف ريح وبكاءَ نجمة.

أسمـــــى وزوز

الغيمة الشـــاردة

ربما نتغيّب عن بعضنا، ربما تبكينا الغيمة الشّاردة، ربما نفتقد الأمسيات، ربما يأتي اللّيل دون أن يحضننا بمساءاته الدّافئة، ربما تهرب منّا الكلمات ، ربما يموت فينا الصّمت والكلام، ربما نطرق الأبواب الموربة، ربما تتساقط منّا الذّكريات على عتبة النّسيان، لكن حتماً لن نفترق ما دامت أرواحنا تحتضنها غيبيات السّماء.

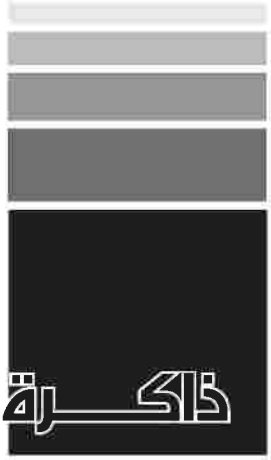

ذاكـــرة أتعبهـــا الحنـــين

أمسيت ممتلئة بك، بمواجعنا وصمتنا الموحش، في غابات عزلتنا التي نتفيأ تحت ظلالها الموهج بجمرات الوداع والفقدان، موجع رحيلك، موجع غيابك. فما أنت إلّا زائر ليل تأتي في أنفاق ذاكرة أتعبها الحنين، وتفتّش عن مكانك في الدّهاليز فتجد أشياءك في كلّ مكان، فتحمل أمتعتك لتودّعني وتتركني كوم رماد. فنحن لا نملك إلّا أحلاماً صغيرة نقتات بها في أيّام عزلتنا ووحدتنا، أما الأحلام الكبيرة فهي ليست لنا في ظلّ هذا الخراب الذي سرق منّا كلّ شيء في ليلة أعاصير مباغتة لنا في حلمنا الكبير. فكم تثقل ذاكرتنا بوجع الفراق الذي زرع الخيبات في منعطفاتنا.

على عتبة الزمن

على عتبة الزمن جلست أنتظرك فجئتَ حاملاً قلبك بين يديك لتقدمه لي رهناً لعمر أضيّعه فيك، فعند خيباتنا وهزائمنا نرحل إلى كهوف ذاكرتنا لنبحث عن أبجديّات ذلك الحبّ الذي لا يعرف منطقاً، فنعرف حينها كم نحن فاشلون في عدم إدراك تلك الأبجديات. فكم نحتاج من الوقت لنفرغ ذاكرتنا المعطوبة بالخيبات؟ وماذا لو أفرغت ذاكرتي من تفاصيلك المؤلمة وتأملتك وأنت ترحل منّي الرّحيل الأخير؟

فعندما نعود إلى أنفاقنا السّريّة ودواخلنا الحزينة بعد رحلة موجعة مع أناس ضيّعنا العمر فيهم، تأخذنا الخيبة للانتقام من حماقاتنا التي أدخلتنا عتمة خياناتهم ونحن لا نرى غيرهم.

تنفـس يـا وطنـــي

صباحات جديدة تطلّ عليك اليوم يا وطني، من شرفات أنفاس شبابك الذي ينذر عمره لك، تنفّس يا وطني أنفاس الخلود، فربما بأنفاسك المحبوسة من سنين تهبنا نفسًا لحياة أعطبتها الزّعامات.

حـــزن علـى وجه القمـــر

أطفأت شموع القلب في ليلة ميلاد انتظرتك فيها، واحتضر القلب لميلاد لقاء أضحى مستحيلاً أن يكون، فما زلت خلف أبواب العمر الموصدة، وأنا امرأة أنهكتها طول المسافات. وتحاصرني بأبجديّات الغياب لتتوه اللّغة في بحور الاشتياق والفقدان. فعندما تنهكنا مسافات الغياب نبحث عن خرائط الحزن لنقيس كم بقي من العمر ليوصلنا بمن نحبّ، فما زال عمري مرفأً ينتظر مركبك التّائه خلف ضباب الشّطآن، وقد صدأت نوافذي التي اعتدت أن أنتظرك خلفها عندما تأتيني بشعاعك الدّافىء، ولكنها الآن مقفلة بصمت وعزلة، وياسمينة الشّوق ظمئت لقطرات ماء ترويها براحتيْك.

وها أنا أرسيت سفينتي على مرافىء وجدانك بعد رحلة موج ومطر. ربما يصلك صدى خيبتي في فضاء تحوم فيه روحك التي أعاتبها بلوعة الغياب واشتياقات ترسم حزناً على وجه القمر، لكنّي أبصر فضاءاتي مغبرّة بذرى الحرمان والانكسارات التي لم تعد إلّا سحباً تمطرني بقطرات الألم.

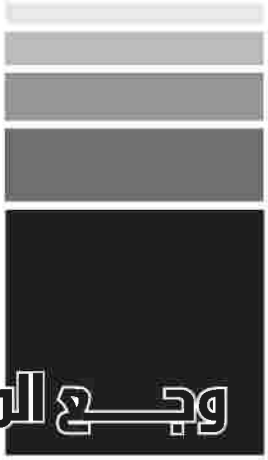

وجـــع المـــرافـئ

على عتبة الزّمن تركت آمالي؛ تعاتبك الهجر، وتسألك ضوء نجمة مفقود، وغيمة ممطرة كانت هنا، ومنتورة شوق بالوجد تفوح، وفوق رمال الشّاطىء رسمت أحلامي معك، ولم أكن أعلم أنّ الرّياح ستحمل تلك الرّمال وتنثرها في فضاء بحر ليس له حدود.

غيم وضباب ومطر، ومساء حزين وزهرة البنفسج تنتظرنا وشجرة الياسمين

موجعة تلك المرافىء التي انتظرتك فيها ولم تأت، فقد غيّبتك الأمواج بمركبك التائه. ولم تعد إلّا المسافر مع البحر، يغادرك الوصول وتتيهك العتمة عن مرفئي. وذاكرتك التي تسكن الغيم وأطياف روحك وغابات النّخيل.

فقد أتيت مع الزّهرة لتهدي القلب شمعة في حضن العتمة وتضيء ليلنا المسافر ويحتضنْك العمر على أرصفة الغياب، والمقعد الخريفيّ الوحيد، والأوراق المتساقطة حولك، تناديني بصوت الرّيح ويضمنا الضّباب، وتتيهنا الظّلمة لنبكي بصدىً موجع في ذاكرة حبّنا المستحيل ونجمة الفرات التي تسافر معنا بمركب دجلة الحزين.

شـــاق هـــو الغيـــاب

شرعت بإغلاق كلّ النّوافذ المطلّة على ساحات ذكراك، وأبواب عبرنا منها، وسراديب قبضنا فيها على يد الزّمن المرّ، لكنّي وجدتً الذّاكرة مشرعة بكلّ منافذها لتعبرها متى وأنّى شئت.

يحاصرني ذلك الشطط لأتوه في ذاكرة أعطبتها بغيابك، ولا مفرّ من عذاباتي فيها، فمتى سأفرغك من أنفاق سكنتها ودهاليز عبرتها بحقائبك التي فرغت من قلم تكتب به مآسي خيباتك معي؟ في لحظات أشعر أني عاجزة عن كلّ شيء إلّا التّأمل في وقع خطاك يوم وداعنا.

فكيف لي أن أختار ذاكرتي معك؟! وأنت كسحابة تطلّ من بُعد، فتبرق وترعد وترسل ريحاً لا مطر فيه، شاقّ أن أؤمن بحقيقة غيابك، ولا أعطي نفسي فرصة الاقتناع بتقصيرك. فعندما نرهن العمر لإنسان استوطننا نكون قد أنذرنا كلّ ما فيه له، وبعدها يضيع هذا العمر دون أن يأتي من انتظرنا.

مـــوائـــد الحمـــاقـــات

عندما أعبر المحطّات دون أمتعتك التي أثقلتني طوال عمر أنهك أنفاسي، أكون قد أصبحت بذاكرة مفرغة من هزائمك وحرائقك في روحي المتعبة، ولو كان حزنك وشاحاً لتدثرت به لأخلعه عنك بعد تلك الرّحلة الموجعة من عطب الذّاكرة، لكنّه دهاليز سريّة تعبرها وحدك دون أن تصاحبني معك في غياباتك الحزينة التي أقصتني عن نفسي، وغيّبتني عن صباحات الحياة، ووحدّتني مع الألم الموجع.

فلم يكن الموعد الذي عقدته معك على موائد الحماقات إلّا هزيمة أدخلتني في غربة مدمية تقصيني عن ضحكة الفجر وحنين المغيب.

فكم قلت لا لتلك الأبواب الموربة لظلّك المبهم، لأني بحثت فيك صدقاً أتاهتني ضبابيّته عمراً، وأنا أبحث عنك فيه، فما وجدت غير العتمة لوفائك المزعوم.

قـــوت مـــن الحنيـــن

ماذا لو طلّ طيفك مع تلك الغيمة، ومنحني قطرات مطر على زجاج نافذتي التي أمحلت بغياياتك الموجعة! فما كان يوماً أن قلتُ لا لخرابك المعهود في منازل اعتدنا الوقوف مستندين جدارها الذي يظلّلنا من عيون غربان تبحث عن طيفنا الهارب من رحيل أخير.

ولو كان لي أن أقتسم قوت الحنين معك لليل سمرنا فيه على موائد الاشتياق، ولكنّني لا أستطيع البوح في ليل لا قمر فيه، نناجيه ظله الموهَبُ للعاشقين، فأنفاسك التي تلتقطها بعد رحلاتك التائه دليلها، والخريفيّة محطاتها، جمرات أطفئها بحنين يغالبني لليالٍ أضاءها شجن اعتلا عرش قلبينا طوال تلك الشهور.

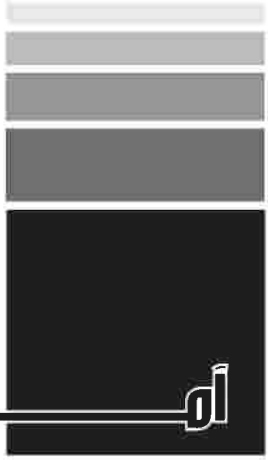

أمـــــــــي

أمّـي عندما تضيق بيَ الدّنيا فلا أجد إلا قلبك يضمّني لأبكي في حضنه متى شئت، ولكن بعد غيابك ورحيلك الأبديّ فمن أجد أدفأ من صدرك ليضمّني إليه في وحدتي وعزلتي؟ ولكن كيف لي أن أناجيك وأنت تحت الثرى؟! فهل تسمعين صرختي وهل تداوين جرحي؟! فأنت القلب الذي لا يقفر وإن أقفرت كلّ القلوب. أمي بعد رحيلك امتلأ قلبي بالخراب، فهل لك أن تعيدي ترميمه؟ يشمّ رائحة الموت والفقدان للمسة حبك فهل لك أن تمنحيه ربيعاً؟ أمــي أدري أنك لا تسمعيني، أدري أنّك فقدت الحياة، ولكن لا بدّ أن تعلمي بحرائقي بعدك، بيتمي وحزني، بوحدتي وإن كثر الأحباب، بعزلتي وإن كثر الأصحاب.

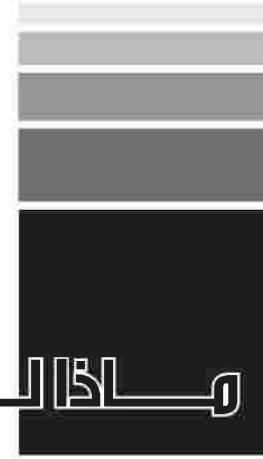

ماذا لو أغلقت أبواب الذّاكرة وواجهاتها أمام اقتحامك الأخير لسراديبها وأنفاقها؟ ماذا لو أغلقت عيوني عن زيارة طيفك الذي يختلس مني هدوئي؟ ماذا لو أفرغتك من كلّ مسرب من مسارب ذاكرتي المتعبة؟ ماذا لو أغلقت كلّ المحطّات المغتصبة لنسياني لك؟ ماذا لو جفّ ينبوع ذكراك من عمقي؟ ماذا لو أطبقت الآفاق عن تلك الغيمة التي تحمل شيئاً من بقاياك؟ ماذا لو أغلقت كلّ الأبواب التي لا تطرقها وتعبر في دهاليزي دون استئذان؟ موجعة ذاكرتي بامتلائها بك أيّها الرّجل غريب الأطوار.

فكم يستوطنني طيفك في تلك المساءات الشتوية! غيم يستظلّ نافذتي وروحك تهيم من خلفها يستأذن قطرات المطر بالدّخول، والضباب يحمل روحينا هائماً عبر فضاء ليرحل فيهما إلى غابات النّخيل.

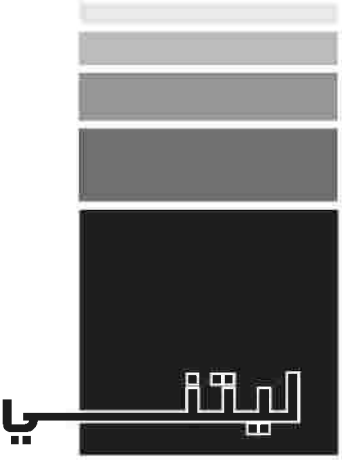

شدى المساء، بتراتيل صوتك العابر صدى الحدود، عازفاً لحن المدى، في مسافات الغياب، مُلهمٌ وجدُك وَالاشتياق، كشجرة بلّلها النّدى، كورقة تعرّت في الخريفَ ثم أتاها المطر فناداها الرّبيع، مورق أنت بغيث حبّ ودفء الفصول. ليتني غيمة في فضاءاتك أمضي بأحلامك وأمطر لك شوقاً، ليتني مركب تصل فيه مرفأك، فأين أنت منّي يا حلم العمر المرّ، أين أنت من خلاياي، من ثناياي، من ذاكرتي، من صمت تاه في بحر الكلمات، من كلمات تاهت في بحور الصّمت، فهل أنت مودّعي على ذلك الجسر الخريفيّ؟ أم أنت قادم مع الغيمة لتحضنني بدفئك في شتاء البرد والمطر والصّقيع، فليتني نافذتك الشّتوية التي تحادثها أحلامك، ليتني مقعدك الرّبيعي التي تورق عنده ذاكرتك، ليتني لم أكن يوماً مجرد ذكرى.

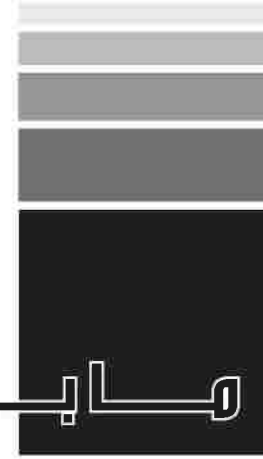

ما بك تقبض على جمرات حرقتي وكأنك لم تكن أنت الذ ي كويتني بها؟ ما بك تتلذّذ بحرائقي وكأنني لم أكن أنا من أمطرت عليك غيث رأفتي؟ مابك تمحلني وكأنني لم أكن يوماً قطرات مطر ترويك؟ ما بك تحاصرني بالفقدان وكأنني لم أكن يوماً وصلاً لمسافات بعدك؟ ما بك توجعني بألم الافتراق وأنا كنت يوماً بلسمك؟ أجبني يا من أحييتك بنبع حنيني وأقفرتني بجفاف قسوتك!

فعندما أخذتَ تتأمل حرائقي، ثم تحمل أكوام رمادي بيديك، وتنثره في الفضاء، هنا أدركتُ حماقتي التي رافقتني أعواماً "بأنك أنت من أحياني بنبض الحب" قد باتت الآن مجرد هزيمة أدخلتني العتمة بكثير من القهر، ولكنني شرعت أعبر الواحات والرّياض بذاكرة مفرغة من خيباتك ومنك.

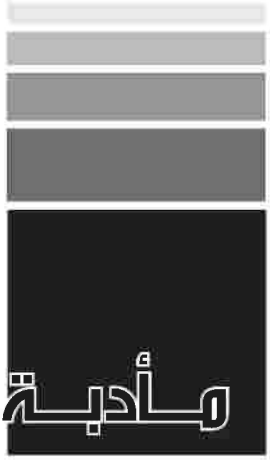

عندما كنتَ ترتدي ثوب الرّحيل بعيون ملأى بواحات الحزن، أخذتُ أتفيأ بظلّ غصونها الموجعة ولم أدرك حينها أن كلّ الأعوام ستمضي وأنا أجالس هَمّ افتراقنا، ولم أكن على يقين بأن رحيلك أبديّ ولا رجوع فيه، الآن أدركتُ بعمر قاسمني الزّمن فيه أنّ كلّ المحطّات أنتَ، ووجعي بكَ غابات بها أتوه.

ربما لا أراك بعيوني ولكنك مختزن بقطرات دمي الذي يهبني الحياة، أفلا ترى أن الحياة مرهونة بوجودك في شراييني؟ ومهما أقصتك الدّنيا عنّي فلن تتغيب من ذاكرتي التي تحتضنك في كلّ ركن فيها.

جميل حزنك الخريفيّ وأنت تنثره بآهاتك الصامتة في فضاء ضباب ومطر، وغيمتك التي تنتظرك في الأفق؛ لتحمل دمعتك وحزنك المطويّ وبعضاً من كِسرة حب أقتات بها عنك في مأدبة الغياب.

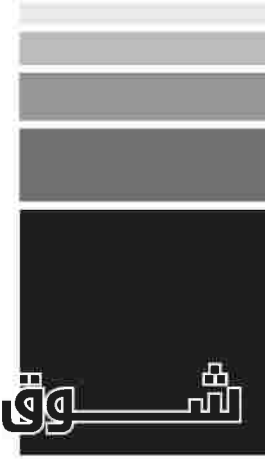

شـــوق مســـاء

في فصل الأمطار يأخذني الجنون وكثير من الحماقات في كتابة اسمك على تلك الغيمة حتى تمطرني بحروفك وأزرعها في كلّ جنبات العمر.

وعبرت أماكن الذّاكرة بشوق مساء ألتقي معك فيه، فإذا بي أجدك متربعاً عروشها ولك في كلّ مكان مقعد انتظار ودمعة وداع وورقة خريف، فأوجعتني المقاعد والأماكن وورقات الخريف، ورحلت أبحث عن صوتك وكلمات حب قلتها في واحات الآمال التي ترسمها لي باللّقاء في ظلّ أشجار الغيوم بمطر دافىء، وحضن فيه الحنين.

فحزن مدادك لحروفك الأخيرة كان قنديلاً في طريق شتويّ فيه سكون الضّباب وشوق المطر وتلك الأشجار المتعرية التي ترسم في القلب وجعاً لذكرى حبك المستحيل.

فـــي مقـــاهي الذاكـــرة

عندما جئتَ مرتدياً وشاح الغياب الموجع، وبعينيك دمعتا شوق تشكو مرارة الأمكنة المتعرية أثارني الحنين لأن أرسمك على لوحة يمازج ألوانها القلب، وأعلّقها على جدار الزّمن، لعلّه يبكينا ويمنحنا مقعدنا الدّافىء في شتاء عُمر لذاكرة أشجاها الحنين.

فجالست ذاكرتي لأراك طيفاً بأكثر الأماكن صمتاً لعبورك الحزين، وصوت حروفك يرتاد الزّوايا وسلّم الوداع ومقاهي انتظارك الطويل، فوجدتك في جنباتها ومساربها تجتاح حزني وصمتي وتقبض على سنوات العمر لكي لا تضيع.

وعلى عتبات الزّمن جلست ببقايا ذاكرة وقصيدة حب كتبتها تحت فيء شجرة قاسمَتْني العزلة والحزن، وقلم سيكتب فيك رواية في زمن الغياب المرّ، وألوان رحيل أمزجها بصمتك وذكرى عشقك المستحيل، ثمّ على لوحة يحملها جدار الأيّام أذرف دمعة شوق لتراها وتمزجها بدمعة الرّحيل.

العبـــور الأخيـــر

من صدى طَرقات الأبواب العتيقة سمعت أنين حزنك وقد تاه بين الطَرقات ورَجْع صوت الغياب؛ ليندثر في فضاء تقاسمنا وإيّاه آهات مواجعنا وشوقَ لروحيْنا أطبق الآفاق.

فكم من عمر تاه في دنيا الأزمان! وكم من حالم ضاع حلمه في خريف الحياة! وكم من حزن تاه في دنيا الخيبات! وكم من حبّ عاش أعواماً وانقضى بعمر اللّحظات! غريبة هي الحياة، وغريب حزني بك، يا كلّ حزني ووجعي أنت.

فكلما ألتقي بك، يتبعثر اللّقاء، ويقف الفراق على أبواب الكلمات ليختطفها ويرحل بها، ونصمت بعدها وتتعرّى الكلمات، لا دفء ولا حنين، وليس هناك إلّا برد الانتظار.

صامتة تلك الدّروب بعد عبورك الأخير فيها، بعد حزني وسكوني تتوه الأمكنة التي نعانق فيها اللّيل وشجرة الصّنوبر الوحيدة، بعد حزنك وصمتك تبكي الياسمينة التي كانت تحتضن همسنا وكلمات

حبّ قلتها لي في يوم ميلاد تلك النجمة التي ترافقنا، غريب أنت، بصمتك، بسكونك، بصدى حزنك.

قصيـــدة المـــــطر

عندما حرّرت ذاكرتي من استيطانك لمساربها وأمكنتها وزقاقها القديم وأفرغتك من كلّ جنباتها، شعرت بأن عمراً أُضيف لعمري الذي تقاسمتني فيه، فكم هو جميل أن تتحرر الذّاكرة منك! ومن خيباتك المتكررة التي استوطنتني بالقهر، وأصبحتُ طيراً مهاجراً لعلّي دونك أجد السّماء والأرض والعشب.

غيم وضباب ومطر، وأوراق شجر تطايرها رياح خريف، وقطرات مطر تدقّ النّوافذ، وطُرقات مبلّلة وسكون شتويّ جميل، تسكنني تلك الأجواء لألتقي بطيفك في المنعطفات الشّتوية وروحك تحوم حولي لتشجيني بقصيدة مطر أعانق فيها شجيرات الغيم لأنشدها فيك.

أعشق فيك أيها الخريف تلك الأوراق الصفراء المتساقطة على الطّرقات، وأعشق شمسك الرّاحلة خلف تلك الغيوم المتناثرة، أعشق فيك سكونك الغريب، أغصانك المتعرِّية، وأعشق هدوءك رغم حزنك، سكونك رغم ألمك وصبرك، رغم رحيل شمسك وأوراقك وثمرك، وأعشق انتظارك المطر لتعود ربيعاً من جديد.

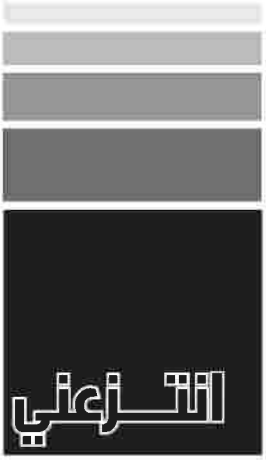

انتـــزعني مـــن وجعـــي

اخلع عني رداء الحزن إن استطعت، انتزعني من وجعي بك، من ليل الوحدة والبرد، من عمق صمتي وأنا معك، من سطور كنت فيها الحرف، من كلمات ينتحر فيها الشّوق، من ذاكرة الخوف، انتزعني من لوعة الغياب حتى أكون رواية بين يديك، شمعة في شتاء ليلك الضّبابيّ، اخلع عني رداءات الموت حتى أكون يوماً لك.

فهل ترافقني في تلك الدّروب الباردة في تلك الرّحلة لأستشعر بدفئك وأرى الشمس من بعد رحيلها الأخير من سماء حلمي؟ أتعبتني تلك البرودة وهذه المنعطفات دونك، بروحك معي ترحل العتمة، وبذاكرتك التي أنا فيها تعود الأمكنة، وعلى صدرك تموت الآهات، ومعك يموت حزن الغربة.

في قطـــار الحنيـــن

أبحث عنك في تفاصيل ذاكرة الزّمن المنسيّة؛ لعلّني أجدك في الأمكنة التي ضجّت لغيابنا وحزننا، علّني أجدك في مقاهي الاشتياق، أو على عتبات الانتظار، أو في قطار الحنين، فما وجدتك فيهم إلّا صامت الكلمات، تائه الأبجديات، تبحث عن اسم تناديني فيه، متدثراً برداءات الخوف من الزّمن، فعدتُ دونك لأبحث عن مكان وزمان لا يطاردانا بالمجهول.

فما عادت الحياة قادرة على منحنا الفرصة الأخيرة في الاختيار، وإنما تركتنا حيارى في كهوفها الباردة، ومساربها الضيّقة والتواءاتها الضّبابيّة، لا قدرة لنا على تأمل الغد ولا على تقبّل الحاضر، فهل من حلم يعيد لنا روحنا الشاردة؟ هل من دفء يذيب ذلك الجليد المتراكم في جنبات القلب والذّاكرة؟

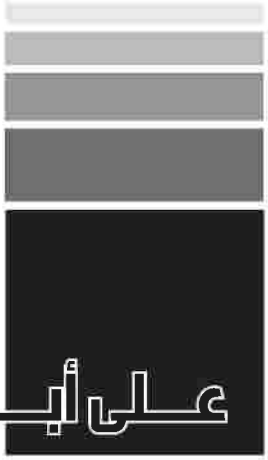

عـــلى أبـــواب الحيـــاة

وقفنا على أبواب الحياة نستجمع بقايانا المتبعثرة في تلك الزّوايا المهجورة هنا وهناك، بكل الغيابات الموجعة، والآمال المنتظرة، وقفنا طويلاً، تأمل كلّ منّا وجه الزّمن ليقرأ فيه حلماً نرسمه سويّاً للقاء ربما يكون مستحيلاً، لغدٍ ربما يكون أجمل، لحبّ ربما يكون أشهى، لعهدٍ ربما يكون أوثق. فضحكت الحروف والكلمات وقالت هناك روايةٌ حلم تكتبانها بلوعة الاشتياق.

كلانا ينسج من الحلم ثوباً ليرتديه في زمن لا نتذوّق فيه إلّا مرارة الفقدان، كلانا يجالس ليالي الثّلج والمطر ليغسل نوافذ الحزن من طول الانتظار، كلانا يلاحق الغيمة في الأفق وطيور الحبّ في زمن الغياب.

فمررت على ذاك البحر فمازجت ماءه بسرّي، لنكون في كلّ مدّ وجزر حكاية تلهو بها الأمواج.

وجـــع الانتظـــار

كان صوتك اليوم استثنائياً في أمسيات الغياب الموجع، صداه أثار الحنين في مساء وحيد متعرٍّ كشجرة تين تلوح على تلك التلّة من بعيد، فجاءها المطر ولبست ثوبها من جديد.

ببقايا ذاكرة أتعبها الفراق، ببقايا زمن مَرَّ من هنا وتاه، ببقايا حزن كنتُ فيه أقتات، ببقايا رحيل وغياب، ببقايا سفرٍ وحقائب شوق، أنا وأنت ومطر الطّرقات على ذاك الرّصيف الوحيد، ورافقتنا حروفنا الأولى التي تُقاسِمنا العزلة في ليلة ثلج وبرد، وقنديل أصفر بلون الحزن، وقلبك الذي يحضنني بصمت.

أفاقني صوتك وأنا أتنفس الحزن فعثرتْ كلماتك على صمتي وصدى صوتي المهزوم بخيبةٍ ووجعٍ واقعٍ يدخلني هزيمة أعوام أخذت عمري كلّه، وما كادت تهبني صبراً وتجلّداً حتى تعمّق فيّ انكسار جديد. رمّمَني صوتك بصدى حبك، رمّم انكساري وأنقاضاً من روحي، فهل يذوب جليد البحر وصقيع الحدود وتلتقي الرّوح بدفئها ويعود

للفضاءات حلم بات يوجَعُ بالمستحيل؟ لقد أوجعني الانتظار، وأتعبني الحنين، بغيابك لا أحسن الصّبر، ولا أتقن النّسيان.

كم هي غريبة تلك الذّاكرة التي نركن في عتباتها آمالنا المنسيّة فنجد الحنين قد يغالبنا لتستوطننا خيباتها من جديد.

أقسى ما في الحياة أن تمرّ عن رماد حياتك المحترق والمتراكم في منعطفاتك فتجلس فوقه تبكي عمراً ضاع بين أناس اختارهم الزّمن لك ولم تكن يوماً معهم على موعد مع الحبّ، وآخرين حرمك منهم وأنت قد عقدت معهم كلّ مواعيد العشق، فتنثر رمادك بيديك في فضاء ربّما هو الوحيد الذي يحمل غبارك المتناثر ويبكي عليه بدمع الغيوم.

عبرت بحور تلك الذّاكرة المتعبَة بمركب عتيق، أتاهني الموج وغالبني الرّيح فناديتك بصدى صوتي عبر كلّ البحور، فلم تأت وعبرتَ البحور ولم تستطع الوصول، محتوم عليك أن لا تصل، كلانا مستحيل له هذا العشق، كلانا يتوه خلف أردية الضّباب، كلانا يضيع بنأي المسافات، فبأي مركب ستعبر!؟ وكلّ المرافىء محظورة الدّخول.

لو كنتُ تلك الغيمة التي ترحل إليك دون قيود ولا جواز سفر، لو كنتُ ذاك المطر الذي يطرق نافذتك وتتأمله بشوق، لو كنتُ تلك الرّياح التي تأتيك ليلة شتاء، لو كنت المغيب الذي ترحل إليه بحلمك، ليتني الياسمينة، ليتني شجرة الصّنوبر، ليتني الحياة التي توهب إليك.

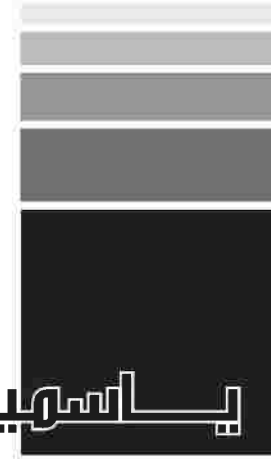

يـــاسمينـة الشـــوق

ما كان لي يوماً أن أقول لك وداعاً في تلك البقعة التي حفلت بأجمل إحساس علّقني فيك، ما كان لي أن أتركك وحيداً في غابة وجعك دون أن أكون مستظلّة معك بفيء شجرات تركنا في جذورها ذاكرتنا، ما كان لي أن أتركك دون مرفىء انتظرتني عليه حتى ضجر من انتظارك الطويل، ما كان لي نسيانك بعدما وهبتني نَفَساً أستنشق فيه نسيم فجر أنت فيه، ما كان لك وما كان لي مستحيل نكون فيه.

فقد تنهدت ياسمينة الشّوق على قصائد حب كتبتها فيك ولم تأت لتقرأها، أو تحياها، أو تولد فيك من رحم الشّعر، الكلّ أتى وأنت الغائب الوحيد، فبكت أبجديات الحروف والياسمينة وتناثرت القصائد، وتبعثر حزن حروفها لتأتيَ متأخراً وتعيد لملمتها من جديد، فلا الكلمات بقيت ولا أنت جئت إلا من بعيد.

فأتعبني الوقوف على بوابات الانتظار، فالغيمة مرّت من هنا، لكن روحك لم تكن معها، ولا طيفك الحاضر البعيد، فأحزنني الغيم وأطرقتُ أرنو لصوت خطاك مع الرّيح، فلا أنت أتيت ولا صدى صوتك الذي كان يأتي مع الأصيل.

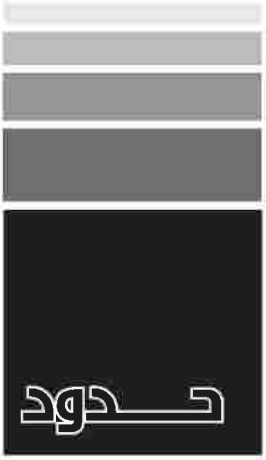

حـــدود عبـورهـا ممنوع

عندما دعتنا الحياة على موائد الافتراق، ومنحتنا كسرات من الاشتياق، نقتات بها في عزلتنا، لم نكن بعد قد اعتدنا هذا القوت في مأدبة لم نكن معها على موعد.

وعندما وجدتك عبر حدود عبورها ممنوع، أدركت كم هو صعب أن نحلم في زمن مرّ، بعد أن تهنا عن الزّمان والمكان الذي كنّا فيه، ولكن لم يكن حينها متّسع من الوقت لأن أستطيع التخلي عن آمال رسمتها وعن حلم عمر بتَّ أنت فيه.

يا عمر الزّمن الآتي، امنحني سنين حبّ لا خريف فيها، فليتك قلت شيئاً في ليلة وداعنا الأخير، فربّما كانت الكلمات قد أعادتنا قبل عبورنا آخر جسر للرّحيل، ولكن أبجدياتك المهزومة استعصتني البوح وكانت زوايانا خاوية ملأى بالجليد.

هـــو الخـــريف

هو الخريف برياحه التي تساقط حلم أوراق الشجر، وغيومه السّوداء التي تحتضن أحلامنا التي جاءت هنا في منعطفات حزينة لتحتضر وتموت إلى ما لا نهاية، كلّ شيء يذبل، وزهرات الحلم تذوي، ونحن بدواخلنا الخريفيّة كذلك نذوي وتيبس أغصاننا.

في الخريف ذاكرتنا يحتويها الخراب وتثقل بالخيبات، فهو حزن الفصول الذي يفرغ ذاكرتنا الموجوعة بالخيانات، نجالسه على العتبات المعطوبة التي كانت يوماً محطّات للسفر وأضحت الآن محطّات موت خريفيّ أعشق فيك أيّها الخريف تلك الأوراق الصفراء المتساقطة على الطرقات، وأعشق شمسك الراحلة خلف تلك الغيوم المتناثرة، وأعشق فيك سكونك الغريب، أغصانك المتعرية، وأعشق هدوءك رغم حزنك، سكونك رغم ألمك، صبرك رغم رحيل شمسك وأوراقك وثمرك، أعشق انتظارك المطر لتعود ربيعاً من جديد.

فكم أتعبتني محطّات السّفر في تلك الذّاكرة الموجعة بغياباتك.

وكم أتمنى مرافقة الغيمة في مسيرتها لعلّي أجد روح من أفتقدهم في ذلك الفضاء الرّحب.

ملامـــح الزمـــن

أقصتنا الحياة عن ملامح الفرح في وجه الزّمن كي لا نتقاسم معه إلّا دموع الفقدان والغياب، فسألناها عن ملامح مختلفة: فأجابت: هي لكم، ولكن بعد كلّ تلك السّنين، بعدما يمرّ العمر بمحطّات فيها تتوالى الخيبات، بعدما تتغير العناوين ولا يبقى هناك مكان ولا عنوان، فتغيرت بعد طول أعوام تعابير السّنين، ولكن وجدنا أنفسنا في اللّا مكان واللّا عنوان، فأدركنا حينها أننا التقينا في ضبابيّته القاسية التي لا جدوى من تغيّرها واختلافها بعد كلّ هذه المنعطفات.

فما أقسى أن لا تشعر بالأمان في بقعة أنفقت سنين عمرك في بنائها، وكلما أخذَت تؤول بالسّقوط أعدتَ ترميمها بيدين منهكتين، وأنفاس متقطعة، وتبني والزّمن يهدم. وبعد ذلك تجد نفسك فوق أكوام من الهدم، فوق رماد تحته جمر يحرق سنيناً كانت هي لك، وأصبحت بكلّ جزيئاتها عليك، بكلّ رمادها الذي يتطاير أمام عيونك لبيقى الجمر يحرق فيك أحلامك، حتّى حبك الاستثنائيّ، عمرك

ربيعك، أشياءك الصغيرة، كلّها تحرق، وأنت لا تملك إلّا الحسرة والذّهول، وماذا سيبقى؟ صباحات خريفيّة ومساءات حزينة، ضجر بامتداد محيط.

أيتها الحيـــاة

هل الحياة قادرة بأنصاف فرصها على تعويضنا ما فقدناه من أحلام كانت لنا هي كلّ وجودنا؟ وهل ما ترميه لنا من فتات في مأدبتها التي تعقدها في نهاية الأعوام كافية على أن نقتات بها؟ أيّتها الحياة هل أنت غريبة في كلّ شيء، أم نحن لم نعد نحتمل عذابات افتقادنا لطعم الفرح فيكِ؟

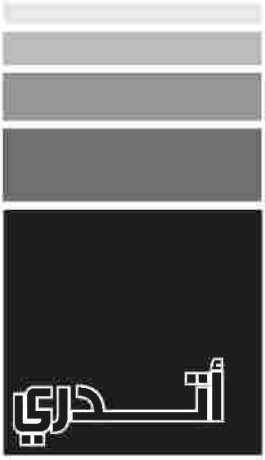

أتـــدري حبيبـــي ؟

أتـدري حبيبي كلما كبرت مساحات غيابك، تحتلّني بأوسع مسافات الفقدان والانكسار، فبُعدك يطفىء شمعة فرح رسَمَتْ بانصهارها أخاديد الانتظار.

ليت الرّيح يحمل روحي إليك لتمنح قلبي الدّفء في ليل بارد على جنباته يتراكم الجليد، وليت الغيمة تأتي لنكتب عليها حروف عشقنا الأبديّ، وينزل المطر وتمتزج الحروف وتصبح أنت أنا، وكلانا في ليلة ميلاد لحب عمر يتوق.

فربما يكون العمر بانتظارك معي إن كان في الأعوام متّسع من بقايا حلم.

ويبقى المقعد والقصيد

وتقول في رحيلي عنك شعراً وأنا أرتدي ثوب ذكراك الأخير، ويهترىء الثوب وتموت القصيدة في زمن كنتَ فيه، ولم يبق إلّا مقعد حزن يشكو الوحدة وينتظر غيرنا من العاشقين، ليقولا ما قلناه وبعدها يأتي اللّيل؛ ليغني الزّمن فيهم لحن وداع على عتباته التي يفترق عندها المحبون، ويرحل بعدنا الكثير، ولكن يبقى المقعد واللّحن والقصيد.